رواية
أسماء عادل
سراديب القصر الخفي

«بسم الله الرحمن الرحيم»

رواية

سراديب القصر الخفي

حسناء حسانين محمد.

إهداء إلى:

إلى مَنْ رأتني بقلبها قبل عينيها..

إلى التي سكبت من عمرها، وعافيتها، وراحتها كي أكون أنا..

إلى التى تسعى دومًا من أجل سعادتي..

إلى الحنونة، الطيبة، الرقيقة..

إليها وحدها..

إلى أمي..

حسناء حسانين محمد.

(السرداب الأول)
(مملكة شامة)

(الفصل الأول)

بعينين خجلتين إختبأ قرص الشمس خلف السحاب، على كلٍ
سيختفي بعد قليل عند الغروب.. زادت برودة الطقس مع غروب

الشمس، لجأ الجميع لمنازلهم، تبقى القليل منهم فقط في الشوارع ممن هم في طريقهم للعودة أيضًا، فيما عدا هذا الشاب؛ الذي يسير في شوارع مدينة المنيا منذ الصباح، يحمل هذه (الكاميرا) ويقوم بتصوير كل ما تراه عينيه من معالم تلك المدينة، حتى وصل في آخر النهار إلى قرية (بني حسن الشروق)، كان متعبًا جدًا، يرتعد من البرد بالرغم من ارتدائه ملابس ثقيلة، لكن الابتسامة كانت لا تزال ترتسم على وجهه البشوش، رفع الكاميرا خاصته لأعلى يلتقط صورةٍ ما لفتاة تقف بمفردها شاردة، انتبهت له وهو يلتقط الصورة، فاقتربت منه غاضبة، صرخت في وجهه:

_ إنت بتعمل إيه يا بني آدم إنت؟!

_ أميرةٌ جميلة وحزينة.

_ بيقول إيه ده؟! ما تكلمني عادي، وبعدين بتصورني ليه من غير ما تاخد إذني؟ ده أنا هـ...

قاطعها الشاب معتذرًا:

_ آسف آسف.. أنا أصلاً ما صورتكيش، أنا أخدت بالي منك وإنتي واقفة لوحدك كده في البرد ده، فـ قلت..

_ قلت تغلس عليا.

_ أنا شوفتك فين قبل كده؟!

زفرت الفتاة بحنق، طالعته باشمئزاز قبل أن ترحل من أمامه، سار ورائها مناديًا:

_ جميلة.

وقفت الفتاة فجأة، التفتت إليه متعجبة، سألته مستفسرة:

_ إنت عرفت إسمي إزاي؟!

_ مش بس عارف إسمك أنا عارف عنك شوية حاجات تانيين، وإنتي كمان تعرفيني.

نظرت له مطولا قبل أن تتسع حدقتي عينيها مندهشة وكأنها تذكرت شيئًا:

_ أيوة أيوة.. إستنى أنا عارفاك.. بس الإسم راح من دماغي، إإ.. إفتكرت، إفتكرت.. سيف، مش كده؟!

_ برافو عليكي يا جميلة.

_ إنت بتعمل إيه هنا؟

_ مين فينا يسأل السؤال ده؟

_ أنا بسألك عشان أنا رجعت المنيا من خمس سنين، إنما إنت إيه اللي جابك هنا؟ شكلك لسة مجنون بالتصوير.

_ مفيش يا ستي، أنا زي ما قلتي كده، لسة مجنون بالتصوير، وكنت جاي هنا مع صحابي، فـ استغليت الموضوع يعني ونزلت من الصبح وصورت كل شِبر هنا تقريباً.

_ وإيه رأيك في المنيا؟

_ جميلة.. مش جميلة إنتي.

لوت شفتيها قائلة:

_ لسة قلشك وهزارك رخم.

_ إحم إحم.. ما قولتليش عاملة إيه في دنيتك ولابسة إسود ليه؟

_ مفيش، من ساعة ما رجعت بعد تانية ثانوي وأنا مش مبسوطة، بابا وماما سافروا بعد ما دخلت الجامعة، وبيرجعوا شهر واحد في السنة، فضلت قاعده مع جدتي السنين دي كلها لحد ما.. لحد ما إتوفت من شهرين.. بابا وماما رجعوا حضروا العزا، وبعدين سافروا تاني وسابوني.

قال باندهاش:

_ ربنا يرحمها، يعني إنتي دلوقتي عايشة لوحدك؟!

_ أكيد لأ.. عايشة مع خالي، وبعد ما أخلص سنة رابعة هسافر لـ بابا وماما دبي.

_ يا بختك.

_ بختي مش زي ما أنت فاكر.

_ باين عليكي شايله كتير، أنا قاعد هنا يومين كمان، لازم نتقابل فيهم بقى.

_ أنا كمان قاعدة يومين هنا.

_ مش فاهم!

_ أصل أنا هنا في رحلة مع صحابي برضو، قولنا نتفسح قبل ما الترم التاني يبدأ.

_ إزاي لسة بتدرسي؟ أنا إتخرجت السنة اللي فاتت!

_ ياربي.. يا ابني ما أنا قسمت سنة تالتة ثانوي.

_ آاه.. تلاقيكي سقطتي وبتقولي كده.

_ لسة بارد ومستفز.

قهقه بصوت عالٍ، فابتسمت هي الأخرى، قال:

_ معلش لو كنت ولسة بدايقك، بس بجد ليكي وَحشة.

_ نتقابل بكرة بقى، أكيد مش هتلاقي حاجه تصورها تاني.

_ لأ فيه.

رفع رأسه يطالع بعينيه كل الإتجاهات، حتى إشرأبت عنقه وهو يطالع شئ ناحية الغرب، أشار بيده منبهرًا وهو يقول:

_ إيه الجمال ده؟ مش بقولك لسة فيه حاجات تتصور.

وقفت على أظافر قدميها حتى ترى ما يشير إليه، وقعت عينيها على حديقة، حديقة قصر كبير، لم تتمكن من رؤية معالمه بدقة، قال مبتسمًا:

_ إيه رأيك؟ تيجي؟!

فكرت للحظات، ثم قالت:

_ ومالو، آجي.

بدا القصر بعيدًا جدًا، حتى أن الليل قد حلّ وهما يسيران تجاه القصر، أرادا أن يتراجعا في منتصف الطريق، لكن شئ ما بداخلهما دفعهما ليكملا ما بدآ.

ظهرت معالم القصر عندما اقتربا منه، كان أبيض اللون، حديقته بلا زهور، فقط أشجار غريبة، لم يراها أحد منهما من قبل، كان القصر مهيبًا عندما اقتربا أكثر، وقبل أن يسيرا خطوة واحدة أخرى، استوقفهما رجل عجوز، يسألهما عن وجهتهما وعن سبب وجودهما في ذلك المكان، قال (سيف):

_ إهدى بس يا عمنا، أنا مصور فوتوغرافي، ورايح أصور القصر الجميل اللي هناك ده، ده بعد إذنك طبعًا.

نظر الرجل خلفه، ثم عاد يطالعهما في حيرة قائلاً:

_ جصر إيه وبتاع إيه؟ فين الجصر ده؟

_ الجصر ده، القصر الأبيض اللي هناك ده.

_ مالك ومال اللهجة بتاعتي، باين عليك شارب حاجه وجاي تطلعها عليا.

_ شارب شاي والله، قولي بس عايز كام وتعديني.

_ كام إيه يا جدع إنت، أنا مالي بيك أصلاً.

تركهما الرجل وسار بعيدًا، قال (سيف) ساخرًا:

_ هو الراجل ده كان موجود واختفي ولا هو مجاش أصلاً؟

_ استنى بس يا سيف، في حاجه غلط، القصر ده مش ظاهر حتى على الـ GBS.

_ طب إنتي معندكيش خلفية حتى عنه؟!

_ بصراحة لأ.

_ إوعى يكون في حد ساكن في القصر ده وإحنا بنستهبل.

_ شكلها كده، بس لأ، القصر عامل زي الآثار وباين عليه إنه قديم أوي.

_ طب يلا نقرب شوية كمان، وأنا هصور من بعيد وبكرة نشوف حكايته إيه.

سارا سويًا في حماسة، حتى وصلا أمام القصر، شعرا بشئ غريب يجتاح قلبيهما، ورغبة ملحة لدخول القصر، وقبل أن ينطق أي منهما، رأى (سيف) فتاة في عمر الثامنة عشر تقريباً، ترتدي ثوب أسود اللون، طويل جدًا، أشار لـ (جميلة) كي تراها، فانتفض جسدها، بينما تشير لهما الفتاة كي يدخلا وهي تبتسم، إختبأت (جميلة) خلف (سيف) قائلة:

_ في حاجه غلط في القصر ده يا سيف، يلا نرجع.

_ نرجع ليه، ما هي صاحبة القصر ذات نفسها شاورلتنا عشان ندخل.

عادا ليطالعا الفتاة ذات الثوب الأسود، لكنها لم تكن موجوده في مكانها، بل كانت بالأعلى، تقف على حافة سطح القصر، شهقا من هول منظرها، ابتسمت لهما مجددًا ثم ألقت نفسها وسقطت على الأرض، صرخت (جميلة) وتبعت (سيف) الذي ركض تجاه بوابة القصر، دفع الباب ببطء، وللدهشة فُتِحَ الباب، دلفا سويًا متجهين للمكان الذي سقطت فيه الفتاة، لكن.. لم يجدا الفتاة!

تسلل الرعب إلى قلبيهما، وفزعا عندما سمع صوت باب القصر الداخلي يُفَتح، التفتا ورائهما، فوقعت عينيهما على الفتاة مجددًا، تقف عند الباب، وتشير لهما بالدخول، وهي لا تزال تبتسم.

* * *

(الفصل الثاني)

كانا كقطعتين من الجليد وهما يطالعان الفتاة ذات الثوب الأسود، أرادت (جميلة) أن تفر هاربة من هذا القصر المظلم، لكنها لم تقوى حتى على الكلام، وبصعوبة قال (سيف):

_ يلا نمشي من هنا بسرعة يا جميلة.

أمسك بيدها كأنه يسحبها ورائه، حتى وصلا إلى بوابة القصر، فوجداها مغلقة! صرخت (جميلة) لرؤيتها الفتاة مجددًا، تجلس فوق السور، وتصفر بعذوبة، اختبأت (جميلة) خلف (سيف) ويداها ترتعش، بينما قال (سيف) للفتاة:

_ بصي هو أنا بحب أفلام الرعب وكل حاجة بس أنا مليش في الجو ده، بالله عليكي سبينا نطلع من القصر الجميل بتاعك ده، وأنا أقسم بالله ما هرجع تاني.

قهقهت الفتاة بصوت عالٍ، وفجأة.. وقفت أمامهما، فزعا وتراجعا خطوتين إلى الوراء، وأخيرًا.. قالت الفتاة بصوت مرح:

_ بقالي سنين مستنياكم.. أهلا بيكم في القصر الخفي.

نظر (سيف) و(جميلة) إلى بعضهما البعض في قلق، تابعت الفتاة حديثها وابتسامتها تتسع:

_ لحسن الحظ إنكوا ظهرتوا دلوقتي، يلا.. ورايا.

رد (سيف): وراكي فين؟ وحسن حظ إيه يا آنسة عفريتة؟

ضحكت مرة أخرى، قالت:

_ مش عارفة ليه جميلة بتقول عليك دمك تقيل!

نظر لـ (جميلة) غاضبًا، قال:

_ أنا دمي تقيل يا جميلة؟ طب وربنا لأمشي وأسيبك.

ارتفع صوت الفتاة وهي تقول:

_ إستنى هنا رايح فين، مفيش خروج من القصر غير لما تخلصوا مهمتكوا.. وبنجاح.

كرر (سيف) عبارتها:

_ مفيش خروج من القصر غير لما نخلص مهمتنا.

تابعت (جميلة):

_ وبنجاح.

ضرب (سيف) رأسه قائلاً:

_ يالهوي يا أنا.. مهمة إيه معلش؟ مغامرات في أعماق البحار؟!

زفرت الفتاة بحنق، قالت:

_ بدأت أصدق كلام جميلة عنك، تعالوا معايا جوا القصر عشان أفهمكوا كل حاجة، ومن غير رغي كتير لأنكوا مستحيل تخرجوا من هنا قبل مهمتكوا ما تخلص، فـ الأحسن ليكوا تسمعوا كلامي وتيجوا معايا بالذوق.

طالعا بعضهما في خوف وتردد، لكنهما تبعاها إلى داخل القصر في النهاية.. وبينما يسيران ورائها، صاحت (جميلة) فجأة وهي تضغط على العشب في الحديقة بقدمها:

_ في صوت طفل صغير هنا.. أنا متأكدة، أول ما دوست برجلي هنا سمعت الصوت.

نظر لها (سيف) متوترًا، قال:

_ الله.. متأكدة ولا ده تخاريف؟ أصل أنا ما سمعتش حاجة!

ابتسمت الفتاة في مكرٍ، وأشارت لهما كي يدخلا القصر بعد أن فتحت بابه على مصرعيه.

وقف (سيف) و(جميلة) عند باب القصر، كان القصر من الداخل أشد رعبًا من الخارج، جدران القصر مظلمة، كأن لونها أسود! هي بالفعل كذلك، ورائحةٌ كريهة تخرج من داخل الغرف، دلفا إلى ساحة واسعة، يوجد بها مقاعد قليلة، ودرج يكاد يكون محطمًا، يقود إلى الطابق الثاني، ستائر القصر بيضاء، تشعر أنها تنظر إليك حين تنظر أنت إليها!

سارا وراء الفتاة وهي تتجه نحو طاولة مستديرة، عُلّق ورائها على الحائط ثلاث لوحات كبيرة، يمتد طول كل واحدة منها من الأرض وحتى السقف! لم يستطيعا رؤية اللوحات بدقة، كان الظلام يملأ

المكان، لكن كلما سارت الفتاة تجاه بقعة من القصر، أنارت تلك البقعة!

حتى وقفت بجانب الطاولة، فوقفا هما أيضًا في الجهة المقابلة لها وللحائط، قالت بجدية:

_ القصر وصل هنا من سنين، ومهماته بدأت تظهر واحدة ورا التانية، ومرت سنين من غير ما يظهر أي واحد من البواسل.. لحد ما ظهرتوا إنتوا الإتنين، في البداية استغربت إن المهمة هتتقسم ما بينكوا، بس القصر عايزكوا، استنيتكوا كتير على فكرة.

قال (سيف) ساخرًا:

_ إستنتينا كتير، ومرت سنين، إنتي كلك على بعضك حوالي 18 سنة أصلاً! وبعدين مهمة وبواسل مين وقصر إيه اللي عايزنا؟

قالت (جميلة): تفتكر ده مقلب عاملينه أصحابنا يا سيف؟

_ والله ممكن، بس لأ دي رمت نفسها من فوق وبتظهر وتختفي وحاجات غريبة كده.

صرخت (سارة):

_ باااس، إخلصوا بقى عشان أفهمكوا وإلا هسيبكوا للسرداب من غير ما تفهموا حاجه.

رد (سيف) في خضوع:

_ خلاص آسفين.. فهمينا بقى.

_ نسيت أقولكوا، أنا سارة، مهمتي إني أحرس القصر الخفي في أي مكان يظهر فيه، وأشرح للبواسل مهمتهم بالتفصيل.. الناس اللي عايشين في عالمكم جاهلين، لو حد قالهم إن في عوالم تانية

عايشة في نفس الزمان والمكان اللي هما عايشين فيه مش هيصدقوا.. بس ده الحقيقة.. في مملكات وقرى وجُزر عايش عليها ناس زيكم بالظبط في عوالم تانية، بس مش بنفس طباعكم أو صفاتكم، من الآخر كده مش بينتموا للبشرية بكل ما تحمله من كلمة، عشان كده من قرون إتبنت السراديب، وفوق كل سرداب إتبنى قصر، قصر خفي عن عالمكم، السرداب بيوصل ما بين القصر وبين منطقة من عالم تاني، الفكرة في إن القصر ده بيتنقل من مكان للتاني حسب المنطقة اللي في العوالم التانية، لما بيحصل ظلم أو إستبداد في المنطقة ده، بيظهر القصر فوق السرداب، عشان اللي وقع عليه الظلم يقدر يهرب للقصر، ويجمد منطقته.

تسائل (سيف) مندهشًا: يجمدها؟!

_ أيوة.. العوالم التانية زي ما قلت لا ينتموا للبشرية، لما بيظهر الظلم في منطقة بيوصل بيهم لأسوأ ما تتخيل، وبيبقي الحل الوحيد هو ظهور باسل من البواسل، فـ بيظهر القصر في عالمكم فوق السرداب، من خلاله بيوصل للقصر الشخص اللي وقع عليه الظلم زي ما قلت، وبمجرد وصوله للقصر، بتتجمد منطقته تجميد زمني، يعني الزمن بيوقف عند الوقت اللي بيهرب فيه الشخص، لحد ما يظهر باسل منكم، يعدي السرداب للمكان اللي حصل فيه ظلم، يتم مهمته ويرجع القصر، ويحرر روح الشخص ده.

قالت (جميلة) بعدم فهم:

_ أنا مش فاهمه حاجه خالص، ده ولا في الخيال، عوالم تانية إيه اللي عايشة في نفس زمنا ده؟ وبواسل وسرداب وقصر خفي، هو في ايه يا سيف؟

سيف:

_ ما هي قالتلك أهي مش محتاجة غباء، أنا بس عندي سؤال أخير لآنسة سارة، إشمعنا إحنا اللي إختارنا القصر نقوم بالمهمة.

ابتسمت (سارة): القصر ده مش بيظهر غير لكل صاحب قلب نقي، وروح شفافة، محدش بيشوفوه غير لو إستحق يقوم بالمهمة، عشان إنتوا كمان ما بينكوا نفوس شريرة ووحشة.

قال (سيف) في كبرياء:

_ عندك حق والله، يعني قصدك إننا أصحاب نفوس طيبة؟

(سارة): بالظبط كده يا باسل.

عقد (سيف) حاجبيه متسائلا:

_ باسل مين أنا سيف؟

ضيقت (جميلة) عينيها تقول:

_ تقريباً ده اسم الشخص اللي بيقوم بالمهمة.

رد عليها (سيف): طب ما إنتي فاهمة كل حاجه أهو.

ابتسمت (سارة) وهي تجلب كتاب كبير جداً وتضعه أمامهم على الطاولة، قالت:

_ في الكتاب ده تاريخ كل البواسل اللي من عالمكم وقاموا بمهمات لعوالم تانية، إنتوا كمان هتبقوا معاهم، مع إنكوا هتكونوا حالة نادرة!

سألا في وقت واحد: إزاي؟!

أجابت: الطبيعي إن كل قصر بيكون تحتيه سرداب واحد، وبيوصل لعالم واحد، واللي بيقوم بالمهمة برضو شخص واحد.. لكن إنتوا.. إتنين، وتحت القصر 3 سراديب، كل سرداب هيوصل لعالم غير اللي قبله.

قالت (جميلة) بسرعة: بس هنكون مع بعض مش كده؟

_ أيوة، مهمتكوا واحدة.. ودلوقتي ميعاد السرداب الاول، والمهمة الأولى.

قالت (جميلة) في قلق:

_ ثانية واحدة، أنا مش هينفع أقوم بالمهمة دي، أنا.. أنا برفض، وعايزة أرجع لأهلي.

هزت (سارة) رأسها، قالت:

_ للأسف يا جميلة.. مفيش مجال للرفض.

صاحت (جميلة): يعني إيه؟

_ زي ما سمعتي.. إنتي مضطرة، وإلا حياتك هتتحول لجحيم، وخلوا بالكم، لو المهمة ما تمتش، ممكن تتسجنوا في العالم التاني ده للأبد.

ازدردت (جميلة) ريقها، قالت لـ (سيف):

_ شوفت، هنعمل ايه يا سيف؟

لزم (سيف) الصمت قليلاً، ثم قال:

_ إهدي بس يا جميلة.. أنا مش شايف سبب للرفض يعني، فيها إيه لو أخدنا الموضوع تحدي، رحلة لمكان وعالم عمرنا ما شوفناه ولا

إتحكالنا عنه حتى؟ فيها إيه لو نبعد عن ناس مش شبهنا، أيوة مش شبهنا، يمكن تكون نفوسنا طيبه فعلاً، غير نفوس الناس اللي حوالينا؟

تعصبت (جميلة): ده على أساس إن نفوس الناس اللي هنروحلهم بريئة أوي؟

قال (سيف) في مكر:

_ هنروحلهم؟ إيه ده إنتي وافقتي؟

هتفت: يووووه يا سيف.

طرقت (سارة) بيديها على الطاولة، فصمت الاثنان، أشارت إلى اللوحة الأولى، فظهرت بوضوح لهما، كانت لوحة لـ سيدة تبدو في سن الأربعين، سيدة جميلة جداً، ترتدي ملابس كالتي ترتديها الأميرات، وعلى رأسها تاج حقًا! وعينيها زرقاء، لحظة واحدة.. إن عينيها.. تتحرك!

صرخت (جميلة) في خوف عندما رأت عينيّ السيدة تتحرك، قالت (سارة) وقد تغيرت لهجتها إلى العربية الفصحى:

_ لا عجب في ذلك، إن روحها معلقة هنا، لكنها ستلحق بكما، فور عبوركما السرداب، هيا يا أبطال.

تسائل (سيف): هيا لأيه بقى؟

_ صدقاني، وضعكما غريب، حتى أني لا أعرف فحوى مهمتكما وراء هذا السرداب، عليكما فقط أن تعبرا، وستعرفان كل شئ، بكل تأكيد.

طالعتها (جميلة) متعجبة، تسائلت:

_ إنتي طريقتك في الكلام إتغيرت ليه طيب؟!

ابتسمت (سارة)، واصلت تعليماتها:

_ لا وقت للأسئلة، في السرداب ستتضح الأمور أكثر.. وداعًا أصدقائي.

قالتها وضغطت بيدها اليمنى على لوحة السيدة الجميلة، فاختفت اللوحة، وظهر الـ.. اللا شئ، وكأن ما وراء اللوحة بئر عميق، نظرا (سيف وجميلة) إلى الظلام الحالك، وظهرت أمارات الدهشة والذهول عليهما، وفجأة.. لم يرى أي منهما شئ، فقط سمعا صوت (سارة) وهي تقول بحماس في صوت عالٍ جداً:

_ إلى مملكة شامة.

* * *

(الفصل الثالث)

تردد صدى صوت (سارة) وهي تقول عبارتها الأخيرة، غرقا (سيف وجميلة) في الظلام، شعرا وكأنهما لقيا حتفهما في هذا الممر أو السرداب..

همست (جميلة) وهي تجلس على الأرض:

_ سيف.. سيف.

همس (سيف): جميلة، إلحقيني يا جميلة، أنا بتخنق.

_ بجد؟ إنت فين طيب؟

عبرت الممر للجهة المقابلة في الظلام، حتى تعثرت في قدم (سيف) وسقطت بجانبه على الأرض، قالت وهي لا ترى أي شئ حولها:

_ سيف.. سيف.. إنت صوتك إختفى ليه؟ يالهوي ده مات ده ولا إيه.

وفجاة.. صرخ (سيف) بجانبها:

_ خضيتك.

_ يالهوي على برودك يا أخي، ده وقت هزار يا رخم؟

_ أنا قولت أفك الدنيا يعني، وبعدين هو إحنا إتعمينا ولا ده ضلمة بجد؟

_ تقريباً كده إتعمينا.

وقبل أن يتفوه أي منهما بكلمة أخرى، سمعا صوت شئ يطرق سطح السرداب، كأنه طائر يرفرف بجناحيه محاولا الفرار مثلهما، وبعد دقائق قليلة، تسلل الضوء إلى داخل السرداب، حيث أحدث

الطائر ثقبًا بمنقاره في سطح السرداب، رأى (سيف) و(جميلة) أنفسهما أخيرًا، كان التراب يملأ ملابسهما، نظرا للطائر، تسائل (سيف):

_ هو ده مهمته إنه ينور لنا طريقنا بس ولا هو ده اللي هيعرفنا مهمتنا كمان؟

_ هو بيتكلم ولا إيه؟

_ مش عارف بس ممـ.. إلحقي ده سابنا ومشي ومكمل في اللي بيعمله.

_ طب يلا وراه عشان شكله هو اللي هيوصلنا لآخر السرداب.

_ ياريت سارة كانت سابتلي الكاميرا.

_ ده حتى التليفونات لطشتها وإحنا داخلين السرداب.

_ لطشتها؟! يا بنتي ده عفريته مش حرامية.

_ وإيه الفرق بقى يا مستر فزلوك؟

_ العفاريت دول أمناء جداً، مستحيل يسرقوا حاجه.

_ يا رااجل.. طب حاسب طيب ده فيه ماية على الأرض.

ظلا يتحدثان وهما يواصلان سيرهما على الضوء الذي يجلبه الطائر من خلال الثقوب، حتى أحدث الطائر ثقب كبير عند موضع محدد، وكانا قد سارا لمدة ربع ساعة تقريباً.. وبعد أن إتسع الثقب، فرّ الطائر هاربًا من السرداب، قالت (جميلة):

_ إيه ده بقى، ده سابنا وطار؟

_ باين كدا أنهى مهمته معانا.

_ هو إنت عارف إيه الطائر ده يا سيف؟

_ بصراحة لأ.. هو شبه النسر بس منقاره كبير جدًا.

~ إنه العُقاب.

صُعِقَا لسماعهما هذا الصوت، كان صوتًا لرجل، ظهرت ملامحه حين اقترب منهما، كانا يرتعدان من الخوف، بينما هو يكمل حديثه:

_ معذرة، إنه يختلف كثيرًا عما ترونه في عالمكم، هذا لأنه عُقاب يطير في سماء مملكة شامة.

ابتلع (سيف) ريقه بصعوبة، طالع الرجل الذي بدا في أواخر العقد الخامس من عمره، لحيته بيضاء كالثلج، يرتدي عباءة رمادية، ويحمل حقيبة من القماش، قال (سيف):

_ تشرفنا بسيادة العُقاب، هو ساعدنا كتير بصراحة، حضرتك بقى هتـ..

قاطعه الرجل: أنا الشيخ جوان، حارس سراديب القصر الخفي، سأساعدكما أنا أيضًا.

تسائلت (جميلة) بعفوية: هترجعنا لبيوتنا؟

ابتسم الشيخ بمرح، فظهرت أسنانه ناصعة البياض، قال:

_ أنتما الاثنان تتشابهان كثيرًا، اتمنى أن تنهيا مهمتكما سريعًا.

تكلم (سيف) بجدية:

_ ممكن أعرف إيه هي مهمتنا في مملكة.. شامة؟

أجابه الشيخ (جوان):

_ قبل أعوام، كانت مملكة شامة أقوى وأجمل مملكة في البقاع، كان ذلك في عهد الملك (أنمار)، وزوجته الملكة (آيار)، وفجأة، انقلبت المملكة رأسًا على عقب، قُتِلَ الملك، واُسِرت الملكة، انتشر الظلم والفساد، حتى تمكنت الملكة من عبور السرداب، تجمدت المملكة في انتظار قدومكما، أعتقد أن مهمتكما اصبحت اكثر وضوحًا.. هل من أسئلة؟

أومأ (سيف) برأسه قائلاً:

_ يعني إحنا المفروض نحارب اللي أخد المملكة وظلم شعبها؟

_ نعم.. الأمير كاظم.

قالت (جميلة): كاظم الساهر؟

نظر لها (سيف)، قال:

_ وبتقولي عليا أنا دمي تقيل؟!.. سيبك منها يا شيخ جوان، وخليك معايا.

_ أنا معك بالفعل.

_ لأ قصدي معايا معنويًا مش بس ماديًا.. المهم يعني الأمير كاظم ده هو عدونا دلوقتي اللي هنحاربه وناخد منه المملكة ونرجعها للملكة آيار.

قال الشيخ (جوان):

_ هناك مهمة أخرى.. إيجاد قاتل الملك.

قال (سيف): أكيد الأمير كاظم هو اللي قتله.

ابتسم الشيخ قائلاً:

_ لا تحكم على الأمور من قشورها يا بني، عليك أن تتعمق أكثر فأكثر حتى تجد ضالتك.

سيف: تمام يا شيخ جوان، إحنا كده وصلنا المملكة؟

_ يتبقى نصف ساعة أخرى، آخر شئ.. يجب أن تتحدثا بلغتنا؛ اللغة العربية الفصحى.

قال (سيف) ممازحًا: حسنًا يا سيدي.

ابتسم الشيخ قائلاً: أخرجا من السرداب، وانتظرا نصف ساعة.

سألت (جميلة): هنفضل قاعدين نص ساعة؟ ليه؟

أجابها: تكون الأمور أفضل حين تسعى لمعرفتها بنفسك.. هيا.

تبعا الشيخ (جوان) حتى خرجا من السرداب، وجدوا أنفسهم في صحراء، رمال ذهبية تغطي كل شئ، رفعا (سيف وجميلة) رأسيهما إلى السماء، هناك شئ غريب في الأعلى، لا يمكنهما وصفه، التفتا ليسألا الشيخ لكنه كان قد اختفى، وكأنه تبخر في الهواء!

صاحت (جميلة): حتى الشيخ جوان سابنا ومشي.. هنفضل هنا نص ساعة بجد؟

_ شكلها كده.

_ إنت مصدق اللي إحنا فيه ده يا سيف؟ حاسة إنه حلم.

_ حلم جميل، أتمنى ما يخلصش.

_ والله؟ مش فاهمة إيه اللي عاجبك في الجِنان ده؟

_ مغامرة ولا في الخيال.. كفاية إننا مع بعض.

ابتسمت (جميلة) في رقة، ساد الصمت بينهما للحظات، حتى هبت رياح شديدة، تحمل رمال كثيفة، لكن.. كأن الرمال تأتي من الأعلى!!

انتظرا حتى انتهت الرياح، ونظرا للأعلى مجددًا، لكن لا فائدة، كأن شيئًا يحجب السماء، لكنه غير واضح، سارا مسافة قصيرة في الصحراء، حتى هبت الرياح المحملة بالرمال مجددًا، مرت دقائق، وفجأةً، رأى سيف جدار يلمع، لم يتحقق منه أولا، لكنه بدا واضحًا عند تعامد الشمس عليه، لحظات وهبت الرياح لآخر مرة، واختفي الجدار، لقد كانا داخل ساعة رملية!!

سيف: مش قادر أصدق إننا كنا جوا ساعة رملية!

_ يمكن عشان كده الشيخ جوان مرضيش يقولنا، عشان ما نتخضش.

_ هي كانت ضخمة أووي، ولا إحنا إتسخطنا؟

_ لأ إحنا زي ما إحنا، بس أكيد وجودنا في الساعة الرملية الوقت ده ليه فايدة.

_ أكيد، والأكيد إننا هنعرفه.. ياريت نتكلم باللغة العربية بقى أحسن نتقفش.

_ وهي نتقفش دي لغة عربية؟

_ اصمتي يا فتاة.

_ عليك اللعنة يا فتى.

ضحك عاليًا، وسارا سويًا في الصحراء، حتى لاحت أمامهما أشجار عالية، اقتربا أكثر، فظهرت مملكة شامة..

عبرا حدود المملكة، سارا لدقائق في غابة مساحتها صغيرة، وأخيرًا مرّ من أمامهما أناس من المملكة، كانوا ثلاثة رجال، يرتدون جميعًا ملابس لونها برتقالي، اختبأ الاثنان خلف شجرة، خوفًا منهم، أنصتا لحديثهم وهم يعبرون، قال أحدهم:

_ لقد هربت الملكة آيار، سمعت أحد الحراس يقول هذا هامسًا.

_ اصمت يا رجل، لا تتحدث عن هذا مرة أخرى، ستجلب لنا المتاعب.

قال ثالثهم: إن لم تعود ملكتنا، علينا أن نخفض رؤوسنا حتى تهدأ العاصفة، ونقف في الصفوف الرابحة.

_ وأين وفائك للملك والملكة؟

_ ما نقوله هذا خطر جدًا، فلنصمت حتى نسمع خطاب الأمير كاظم اليوم.. وبعدها نعرف لمن سيكون وفائنا.

توقفوا عن الكلام ورحلوا من امامهما، همست (جميلة):

_ الموضوع شكله بجد.. أنا اتحمست فجاة كده.

_ تصدقي؟ وانا كمان.. اخدتي بالك؟ كلهم لابسين نفس اللون!

جوان: هذه أوامر الأمير كاظم.

كما حدث منذ قليل، فاجئهما الشيخ (جوان)، فزعا اولا، لكن عادا لطبيعتهما فور أن وقف بجانبها، قال (سيف) يائسًا:

_ للمرة الثانية.. أفزعتنا.

_ أعتذر، هيا، إلى ذلك الكوخ.

نظرا إلى الجهة التي أشار إليها الشيخ، كان يوجد كوخ صغير حقًا، لم يلحظه أي منهما، أردف الشيخ وهو يخرج شئ من حقيبته:

_ ارتديا تلك الملابس كي لا يشك أحد فيكما.

تناولا منه الملابس، دلفت (جميلة) إلى الكوخ أولا، ارتدت تلك الملابس التي كانت عبارة عن ثوب طويل لونه برتقالي، وحجاب نفس اللون.. أما ملابس (سيف) فكانت سروال وقميص قماشيين أيضًا، قال (سيف) بعد أن خرج من الكوخ:

_ ينفع واحد جان زيي يلبس اللون الفاقع ده؟

ضحكت (جميلة): راحت الوسامة يا سيف بيه.

جوان: هوششش، تحدثا مثلي وإلا سنقتل جميعًا.. والآن اعبرا ذلك الطريق حتى تصلا إلى العامة، ستجدا الزحام شديد، هذا أفضل لكما، أنصتا لكلمة الأمير كاظم وانتظرا حتى يتفرق الناس، وقِفا عند شجرة (فلامبوينت)، حتى يأتي (عمّار) إليكما.

تسائل (سيف): من هو عمّار؟

_ فتى يافع وشجاع، سيساعدكما في إنجاز مهمتكما، وسيوفر لكما أيضًا الطعام والمبيت.

ابتسم (سيف)، قال شاكرًا:

_ شكرًا جزيلاً لك.. أتمنى رؤيتك مجددًا.. ولكن.. دون مفاجأة.

ضحك الشيخ: في رعاية الله يا بني.. اعتني بالفتاة.. بالرغم من أنها تبدو أكثر حماسًا وهدوءًا من قبل.

بادلته (جميلة) ابتسامة عذبة، قالت:

_ شكرًا لك.

غادرا الشيخ (جوان) سائرين في الطريق المحدد، لم يتحدثا طوال الطريق، كانا منشغلين في تفحص ومراقبة ما حولهما، كانت مملكة (شامة) كالتي في الروايات، لكن ينقصها شئ!!

بها غابة، لكنها صغيرة، بها أشجار، لكن اوراقها متساقطة، بها نهر، لكنه جاف!

بعد دقائق، تسلل إلى آذانهما صوت جلبة، عرفا أن هذا تجمهر أهل المملكة.. سارا مسافة ليست بالطويلة حتى وصلا إلى الساحة، كانت (جميلة) تسير خلف (سيف) طوال الطريق، لكن عند دخولهما الساحة، أمسكت بذراعه، كأنها تحتمي به، قال لها:

_ إهدأي يا فتاة، لم نفعل شئ بعد.

_ سيف أنا.. أنا خائفة، أشعر أن شيئًا سيئًا سيحدث.. لا تبتعد رجاءًا.

_ لا تخافي.. أنا بجانبك.

صمتا رغمًا عنهما، فقد أتى حراس الأمير، معلنين قدوم الأمير (كاظم)، إشرأبت أعناق الجميع نحو المنصة، ليروا الأمير وهو يصعد المنصة، وبالفعل صعد، لم تظهر ملامحه لـ (سيف وجميلة) لأنهما كانا في آخر الساحة، لكن (سيف) رأى فقط.. أنه قبيح!

جلس الأمير على مقعده المزخرف بالنقوش الذهبية، تنحنح، أشار بيده اليمنى وهو يطالع الناس باحتقار، فاقترب اثنين من حراسه ناحية (سيف وجميلة) لم يفهما ما يحدث، لكن في أقل من ثانية، أُعتقلت (جميلة).

* * *

(الفصل الرابع)

كان حراس الأمير أسرع من البرق وهم يعتقلون (جميلة)، صرخ (سيف) محاولاً منعهم لكنه فشل، بينما هي تبكي وتصرخ بأعلى نبرة لديها، دون أن يفهم أي منهما أو من العامة ما يحدث!

وبعد أن سحبها الحراس، دلفوا بها إلى القصر، قطع (سيف) مسافة كبيرة وهو يُبعد بذراعيه الناس من أمامه، كان كثورٍ هائج، احتقن وجهه حتى وصل أمام المنصة مباشرةً، فنهض الأمير (كاظم) من مقعده، طالع الناس بازدراء، تكلم أخيرًا بغرور شديد:

_ ما حدث منذ قليل للفتاة لم يحدث.. ما حدث منذ قليل ماذاا؟!

تكلم الناس بصوت عالٍ: لم يحدث.

أردف الأمير (كاظم):

_ ممتاز.. ممتاز يا شعب مملكة شامة.. انتشرت شائعة مقززة بالأمس تقول أن الملكة (آيار) هربت من الأسر، لذا أردت أن اجتمع بكم كي أُصحح لكم تلك الشائعة، شعبي العزيز.. إن الملكة (آيار) توفيت صباح الأمس..

زادت الهمهمات والهمسات بين الناس، فواصل الأمير حديثه يتظاهر بالحزن بطريقة درامية:

_ إنه لأمر محزن جدًا، لقد فقدت مملكتنا ملكة عظيمة.

ثم تحولت نبرة صوته وعاد لأسلوب حديثه المغرور مثله:

_ لكنها صارت الآن مجرد ماضٍ، يجب عليكم فهم ذلك، ماذا صارت الملكة (آيار)؟!

ردد الناس في خضوع كالأطفال:

_ مجرد ماضٍ!!

كل هذا و(سيف) يحترق من داخله، يكاد يصاب بالجنون حقًا مما يسمعه من هذا الأمير ومن الناس حوله، أنهى الأمير كلامه قائلاً:

_ ممتاز يا شعب مملكة شامة.. بعد غد ستشهد المملكة حفل كبير، حفل تنصيب أميركم؛ الأمير كاظم ملكًا للمملكة.. كونوا على الموعد.

ولّى الناس ظهره وغادر المنصة، تابعه (سيف) بنظراته حتى دلف القصر، توقف عقله للحظات، لم يعرف ماذا سيفعل، حتى اتسعت حدقتي عينيه عندما تذكر الشجرة التي سيجد عندها الشاب الذي سيساعده، لكن سرعان ما اعتلى اليأس وجهه، لأنه لم يستطع تذكر اسم الشجرة! انتظر لدقائق والناس يرحلون واحدًا تلو الآخر، استوقف أحدهم وقد كان لا يتبقى الكثير من الشعب، قال بثبات:

_ من فضلك.. أين هي الشجرة؟

_ أي شجرة؟!

رد (سيف) محاولاً التذكر:

_ شجرة.. شجرة.. لا يمكنني..

وفجأة رأى شجرة قريبة من القصر يقف عندها شاب ينظر حوله في كل الاتجاهات، كان شابًا وسيمًا، قامته طويلة، يبتسم بعفوية لمن حوله، توقف (سيف) عن الكلام، ثم شكر الرجل الذي استوقفه واتجه نحو الشجرة، ربما تكون هي..

عندما اقترب من الشاب تردد في سؤاله، لكن الشاب دنا منه وهو لا يزال يبتسم، قال هامسًا:

_ لابد أنك نسيت اسم شجرة (فلامبوينت).

قال (سيف) في قلق: هل أنت عمّار؟

أجابه الشاب: بلى.. سعيد لرؤيتك أيها الـ..

ثم أخفض صوته مواصلا حديثه: أيها الباسل.

حاول (سيف) أن يبتسم، قال (عمّار):

_ هيا اتبعني إلى منزلي.

_ مش.. أقصد لن أرحل من هنا دون جميلة.

_ إهدأ يا أخي.. جميلة في أسر الأمير كاظم، ولن تتمكن من الوصول إليها بهذه السهولة.

قال (سيف) متعجبًا: لا أفهم لِمَ أعتقلها؟ لِمَ هي بالتحديد؟!

_ تعال معي لأخبرك.. وإلا ستعتقل أنت أيضًا.

_ سيكون هذا أفضل.

قالها وتبع (عمّار) وهو يخرج من ساحة القصر، كان غاضبًا جدًا، ويتحاشى النظر في أعين الناس، عبر شوارع المملكة خلفه، كانت شوارعها قصيرة، منازلها متراصة على جانب واحد، ولا يزال الناس يرتدون ملابس باللون البرتقالي!

وصلا أخيرًا إلى منزل (عمّار)، أو كوخ (عمّار) الخشبيّ، فقد كان منزله يختلف عن البقية، كان صغير جدًا، يتسع فقط لشخصين

اثنين.. دلف (سيف) إلى داخل الكوخ، وفور دخوله، ثار وقال منفعلا:

_ كان خطأي من البداية.. لِمَ وافقت على ذلك؟ لقد أُعتقلت جميلة، وهذا الأمير لا يرحم، فقد قتل الملكة آيار، يا إلهي، لقد فسد كل شئ، قُتلت الملكة، وضاعت جميلة و..

_ توقف رجاءً واهدأ قليلا، عالمكم يجعلكم غاضبين ومتعصبين جدًا أيها الباسل، لا أدري كيف تكون بتلك الـ.. حماقة.. معذرة، لا أقصد.

احتقن وجه (سيف) بينما شعر (عمّار) بالخجل من كلماته الأخيرة، ران عليهم صمت طويل، جلس (عمّار) خلاله على مقعد من الخشب، وجلس (سيف) بجانبه، هدأ قليلاً، ثم قال:

_ كيف لي أن أهدأ وجميلة في الأسر؟!

_ أنت مضطر لأن تكون هادئًا، لحسن حظك لم يعلم الأمير بوجودك.

_ لحسن حظي؟! بالتأكيد لحسن حظي، وماذا عن جميلة؟ رجاءً أخبرني بما عندك.

_ سأخبرك يا صديقي.. أنت لست أول شخص يحضر إلى عوالم وممالك أخرى، ما دام هناك بشر، إذًا يوجد ظلم وفساد.. هكذا هي حياتنا، بالتأكيد تعلم بأمر السراديب والقصر الخفي، هؤلاء حلقة الوصل بين عالمكم والعوالم الأخرى، ومن يأتي إلينا يكون غريبًا، لا يعرف طباع الشعب الذي من المفترض أن يساعده، لذا يضطر حارس السراديب إلى أن يتحالف مع أحد أبناء هذا الشعب، ليكون

خير معين للباسل في مهمته، أنا هذا المعين يا سيد سيف، وواجبي هو مساعدتك.

_ حسنًا يا عمّار.. هناك أسئلة كثيرة في رأسي أود ان...

قاطعه (عمّار):

_ أعلم جيدًا ما يدور في رأسك.. الملكة آيار لم تُقتل، إنها لا تزال على قيد الحياة، لكن لسوء الحظ علم الأمير كاظم بأمر البواسل، فخشي أن يُهزم ويُسلب منه حكم المملكة، وقد كانت أخبرته الملكة آيار دون قصد أن هناك فتاة سوف تأتي لمحاربته، وهذا يُفسّر سبب إعتقاله لها.

_ لكن.. كيف عرف أنها هي بمجرد النظر إلينا؟

_ في الحقيقة لا أعرف، لكن الأمير كاظم ذكي جدًا، لكن ذكائه يقوده للشر في الغالب.

تنهد (سيف)، نظر لملابسه، ثم قال:

_ لماذا يرتدي الجميع هنا ملابس برتقالية اللون؟!

ضحك (عمّار) وقال: هذا أمرٌ من الأمير كاظم؛ أن يرتدي جميع أفراد الشعب ملابس بهذا اللون.

_ مستبد.. لقد رأيت كيف يصدر أوامره والناس يخفضون رؤوسهم في طاعة.

وضع (عمّار) يده على كتف (سيف)، قال:

_ لهذا أنت هنا يا بطل.

_ يجب أن أقوم بتحرير جميلة أولاً.

_ لا يا سيدي.. نسيت أن أخبرك...

_ تخبرني بماذا؟ أخبرني.

_ تحرير جميلة من ضمن مهمتك، هكذا أخبرني الشيخ جوان.

_ ماذا؟! إذًا كان يعلم أنها ستعتقل.. هذا الرجل.. لو رأيته سأحطم رأسه.

_ لا تظلمه رجاءً، هناك أمور من الافضل لك أن تجهلها، وهناك أمور أخرى تكون أفضل إن تجاهلتها.

أومأ (سيف) رأسه يائسًا، يفكر في كل ما حدث وسيحدث له في الأيام المقبلة، شردت نظراته ولم يلحظ خروج (عمّار) من الكوخ، حتى انتبه له عندما عاد حاملاً حقيبة قماشية كالتي كان يحملها الشيخ (جوان)، مد (عمّار) يده داخل الحقيبة فور دخوله، قال باسمًا:

_ في مملكتنا برتقال أيضًا وليس فقط مجرد لون نرتديه.. تفضل.

أعطاه برتقالة، رفض (سيف) في البداية، لكنه تناولها بعد إلحاح من (عمّار)، تسائل (عمّار):

_ من أين ستبدأ يا بطل؟

_ أن من يسأل هذا السؤال.

_ حسنًا.. مهمتك تعلمها جيدًا؛ تحرير جميلة والملكة آيار من الأسر، وهزيمة الأمير كاظم واسترداد الحكم.

_ أعلم هذا، من أين أبدأ؟!

_ بعد غد.. بما أن الأمير لا يعلم بأمرك فهذه فرصة عظيمة كي تقترب منه.

_ أقترب منه؟!

_ نعم.. كي تهزمه يجب عليك أن تكون فردًا من أفراد القصر، وبعد غد هناك احتفال لتنصيبه ملكًا، هذه فرصتك لدخول القصر والتقرب منه.

_ سيكون هذا وشيكًا؛ أنا لا أعلم أي شيء عن المملكة وربما أخطئ في شئ ما!!

_ لا تقلق، أنا معك، وهناك أيضًا ٢٤ ساعة لأخبرك فيها عن مملكتنا وتاريخها.

أومأ (سيف) رأسه إيجابًا، قال في توتر:

_ أتمنى أن تكون جميلة بخير الآن.

* * *

عندما إعتقل الحراس (جميلة) ظلت تصرخ لدقائق وهم يجرونها تجاه القصر، دُهشت حين وقفوا أمام القصر، لقد كان نفس القصر الذي رأته قبل ساعات في المنيا! وأثناء صدمتها وخوفها شعرت بثقل في رأسها، ثم فقدت وعيها.

فتحت (جميلة) عينيها ببطء شديد، مرت دقيقة حتى استطاعت رؤية الغرفة التي سُجِنت بها، لقد كانت غرفه مستطيلة، مظلمة، لا ضوء إلا من نافذة صغيرة، سعلت (جميلة) حين اشتمت رائحة التراب، لقد كانت مستلقية على الأرض، والتراب يملأها، شعرت

بخوف شديد من وحدتها، وقبل أن تفكر في أي شئ أو تنطق بكلمة، فزعت وارتعد جسدها، بعدما سمعت صوت سيدة تقول:

_ لابد أنكِ الفتاة من العالم الغريب.. أعتذر لكِ.

استعادت قوتها، نظرت إلى أحد جوانب الغرفة، حيث سمعت الصوت، قالت (جميلة) في قلق:

_ من أنتِ؟

نهضت السيدة وسارت نحوها، لقد كانت إمرأة جميلة، ترتدي رداء مميز، كالتي رأت الملكة ترتديه في اللوحة، وبينما هي تعود بذاكرتها، قالت السيدة:

_ أنا الملكة آيار.

تذكرت (جميلة) على الفور، قالت:

_ سيدتي، هل أنتِ بخير؟ هل نحن في سجن؟

_ أنا بخير منذ أن رأيتكِ.. بالطبع هذه الغرفة سجن لنا، أعتذر لكِ يا فتاة، لقد أخبرت الأمير كاظم دون قصد أنكِ آتية لإنقاذي.

_ لهذا إعتقلني؟! تُرى هل إعتقل سيف؟

_ من هو سيف؟!

_ شريكي في المهمة.

_ حقًا؟! لم أكن أعلم.. هذا.. هذا جيد، الأمير لا يعلم بوجوده، بالتأكيد هو حر الآن وسيساعدنا، لا تخبري أحدًا بوجوده.

_ أتمنى أن تفعلي ذلك أيضًا.

أخفضت الملكة رأسها خجلاً، ساد الصمت بينهما للحظات، حتى قالت الملكة:

_ لقد قال أحد الحراس حين أحضروكي أن هناك حفل لتنصيب كاظم ملكًا بعد غد.

_ هل هكذا يعلن الأمير انتصاره علينا؟

قالتها بسخرية، لزمت الملكة الصمت، وقاطع صمتهما هذه المرة صوت أشخاص بالخارج، وقفت (جميلة) في خوف وكذلك الملكة، حتى فُتِحَ الباب بقوة، وظهر شخص قامته متوسطة، يرتدي ملابس فاخرة، كان هو الأمير (كاظم)، نظر إليهما بنظرات الغرور المعتادة، قال:

_ معذرة أيها الغريبة، لا وجود للغرباء بيننا.

_ دعها وشأنها يا كاظم.

_ ملكتي العزيزة، يؤسفني أن أقول لكِ أن شعبكِ قد علم اليوم بخبر وفاتك، وبعد غد سيتحول الخبر إلى حقيقة.

تشجعت (جميلة) وقالت: لن تفعل.. سأهزمك.

قهقه بصوت عالٍ، دنا منها، قال:

_ إن الفتاة المسئولة عن إعداد الطعام في القصر أقوى منكِ.

_ سأضحك أنا في النهاية يا.. أمير كاظم.. ليتني أعلم كيف عرفتني بين العامة.

عاد ليضحك مجددًا، ثم قال:

_ كنت على يقين أنكِ في الساحة اليوم، لكن كيف أتعرف عليكي؟ وبمجرد النظر إلى فتيات المملكة وقعت عينيّ عليكِ، أدركت على الفور أنكِ الهدف المطلوب؛ فطريقة حجابكِ لا تشبه طريقة فتيات المملكة، لو دققتي النظر فيهن لعلمتي أنهن يتركن خصلات شعرهن على أكتافهن كالملكة آيار.

طالعته (جميلة) بتحدٍ، قالت:

_ لا أرغب في تحطيم سعادتك يا أمير كاظم، لكني كنت أنتظر إنتهائك من كلمتك السخيفة وأكشف لك هويتي.

تعصب الأمير، كوّر قبضته، قال:

_ كيف تجرأي على إهانتي؟ ستدفعين ثمن شجاعتكِ الكاذبة هذه.

_ قتلي لا يعد نصرًا.

ضيّق عينيه، قال مبتسمًا:

_ ومن قال أني سأقتلكِ؟ في الواقع أحتاج إلى خادمة، وها أنا قد وجدتها.

صاحت الملكة (آيار):

_ لا تفكر في هذا يا كاظم.

قالت (جميلة) في شجاعة:

_ دعيه يقول ما يشاء، فهو لن يقوى على فعل هذا.

حملق الأمير بوجهها، قال متوعدًا إياها:

_ بل سأفعل، لنرى من منا سينتصر.

قال عبارته وغادر الغرفة، أغلق الحارس الباب وعادت الملكة تتحدث مع (جميلة).

* * *

في غرفة كبيرة في القصر، استلقى الأمير (كاظم) متكِئًا على وسادته، يمد يده إلى طبق الفاكهة أمامه ويأكل منه بشراهة، كان يجلس وحيدًا يفكر في الحفل، قاطع شروده صوت فتاة تدخل غرفته مندفعة وغاضبة، كادت تحترق عندما مَثُلت أمامه من شدة غضبها، قالت بصوت عالٍ:

_ ما الذي فعلته يا كاظم؟!

نهض الأمير وعلى وجهه علامات ضيق، قال محاولا تهدئة نفسه:

_ سأكون ملكًا بعد غد وأنتِ تتجاوزي حدودك معي إلى هذا الحد؟ ماذا بكِ يا دروسيرا؟ كيف تتكلمي معي هكذا؟

تراجعت الفتاة خطوة إلى الخلف، قالت وقد هدأ صوتها:

_ سأكون الملكة أيضًا، ومن حقي أن أتحدث معك كيف أشاء.

_ ماذا تريدين؟

اقتربت منه الفتاة مجددًا، قالت في رقة:

_ عزيزي لقد سمعت كلمتك اليوم، وسعدت كثيرًا حين إعتقلت الفتاة الغريبة، لكن.. لِمَ لم تقتلها حتى الآن؟

_ ليس هذا من شأنك.

_ بل شأني.. لقد سمعت أحد الحراس يقول... أنك خضعت لها لذا لن تقتلها.

_ هل تتجسسين عليَّ؟ أنا أفعل ما يحلو لي.

_حسنًا حسنًا.. لا أدري لِمَ أنت غاضب هكذا.. سأذهب الآن لإعداد الحفل.. وهناك مفاجأة بعد قليل.

ابتسم قائلاً: أتمنى أن تسعدني مفاجئتكِ.

* * *

فُتِحَ باب الغرفة مجددًا، هذه المرة دلفت الأميرة (دروسيرا) غاضبة، تنظر إليهما في تعالٍ، قالت الملكة (آيار) في ملل:

_ ماذا تريدين أنتِ أيضًا يا دروسيرا؟!

ردت الأميرة في جفاء:

_ أريد الفتاة.

قالت (جميلة): وأنا لا أريدك.

_ هذا بإرادتي أنا فقط.. وإرادتي ستقضي عليكِ الليلة.

سحبت الأميرة خنجرًا من ردائها، اقتربت من (جميلة) التي صُدمت من فعلتها، لحظات قليلة وتناثرت دماء (جميلة) على الأرض وسط صرخات من الملكة (آيار).

* * *

(الفصل الخامس)

تعالت صرخات الملكة (آيار) مما رأت، فقد اخترق خنجر الأميرة (دروسيرا) ذراع (جميلة) الأيمن، تراجعت الأميرة للخلف بعدما حضر الأمير (كاظم) فجأة، اقترب من (جميلة) وهي تبكي بشدة من الألم، كذلك احتضنتها الملكة، وهي تقول:

_ أحضر الطبيب بسرعة يا كاظم، تكاد الفتاة تموت من الألم.

تردد للحظات ثم نادى على أحد الحراس، وأمره بإحضار الطبيب، قالت (دروسيرا):

_ هل جننت يا كاظم؟ ستعالج تلك الغريبة!

نهرها الأمير بعنف: كل هذا بسببكِ أنتِ.

_ أردت أن أساعدك و...

قاطع حديثها صرخة عالية من (جميلة) ثم وفي أقل من ثانية، غابت (جميلة) عن الوعي، فقال الأمير:

_ خذوها من هذه الغرفة حتى يعالجها الطبيب، واتركوا الملكة آيار هنا.

قالت الملكة راجية إياه: رجاءً يا كاظم، اجعلهم يأخذوني معها.

قال الأمير: وهل يعود الموتى من قبورهم؟! هيا خذوها.

غادر الغرفة غاضبًا وهو يسحب الأميرة (دروسيرا) خلفه، أخذ حراسه (جميلة) إلى الطبيب كي يعالجها.

* * *

في غرفة الأميرة (دروسيرا):

دلف الأمير (كاظم) الغرفة يستشيط غضبًا، دفع الأميرة بشدة فسقطت على الأرض، صاح:

_ كيف تتصرفين بتلك الحماقة؟ ودون علمي أيضًا!

صُدِمت مما فعله، حاولت النهوض وهي تقول:

_ الحماقة هي أن تُبقي عدوك في قصرك، هل أخطأت لأني حاولت مساعدتك؟! نعم كنت سأقتلها، وإن لم تقتلها أنت سو....

_ ليس هذا من شأنك، أنا ملك هذه المملكة، وأنتِ مجرد أميرة، لا سلطة لديكِ.

وقفت بثبات، قالت في خبث:

_ لا تنسى أني سأكون الملكة.

لزم الصمت، هتفت:

_ يمكنني هدم كل ما بنيته يا كاظم.

تراجع حديثه: لا أفهم لِمَ كل هذا الغضب؟

_ لقد قالت لي الخادمة أنك لم تقتلها لأنها أعجبتك.

ضحك قائلاً: وإن كانت أعجبتني هل هذا سببًا يدفعكِ كي تقتليها؟!

_ بالتأكيد، ولا تنسى أيضًا أنها العدو.

_ إذًا هذه هي المفاجأة.

_ نعم، كنت سأقتلها لأجلك.

_ اسمعي يا دروسيرا، كل ما قالته الخادمة مجرد كذبة، لكن.. لا تقتربي من جميلة مرة أخرى، ولا تتدخلي فيما أفعل.

قالت في غضب: إذًا هي حقًا تعجبك.

_ كفاكِ غيرة، لا أحد سيأخذ مكانتكِ.

_ لذا سيقام حفل زفافنا الأسبوع القادم.

_ ماذا؟!

_ كما سمعت، بعد غد ستكون ملكًا، وبعد أسبوع سأكون زوجتك وملكة هذه المملكة.

_ إذهبي الآن، ولنكمل حديثنا في الصباح.

* * *

في إحدى غرف القصر:

كانت (جميلة) نائمة على الفراش ولا تزال فاقدة للوعي، وبجانبها رجل في الستين من عمره، يضمد جرح ذراعها، دلف الأمير (كاظم) إلى الغرفة فنهض الطبيب على الفور، قال الأمير:

_ هل إنتهيت؟

_ نعم يا جلالة الملك.

_ لِمَ هي نائمة إذًا؟!

_ دقائق وتستعيد وعيها.

_ لا أحب تضييع الوقت.

ثم أمسك بكوب ماء كان بجانب الفراش، وألقاه على وجه (جميلة)، فتحت عينيها في ذعر، نظرت له في خوف، وهي تمسك بذراعها، قال في برود:

_ لا تزال الأميرة دروسيرا لا تعرف تستخدم الأسلحة؛ فقد كان هدفها غرس خنجرها في قلبك، لكنها أصابت ذراعك!

ابتلعت (جميلة) ريقها في صعوبة، قالت محاولة التظاهر بالشجاعة:

_ أرجو أن تتدرب الأميرة كثيرًا في الأيام المقبلة، فأنا أُجيد إستخدام الأسلحة.

ضيّق عينيه قائلاً: سنرى يا أميرتي.

قالها وأشار للطبيب كي يغادر خلفه، بقيت (جميلة) في الغرفه بمفردها لدقائق تتأوه من ألم ذراعها، وتفكر في حال (سيف) الآن، وحالها في الأيام القادمة في تلك المملكة الغريبة.

كادت تنام مجددًا لولا دخول إحدى خادمات القصر وفي يدها بعض الأقمشة، قالت:

_ هذه الملابس لكِ سيدتي، لقد أمر الملك كاظم أن ترتديها.

تناولتها (جميلة)، لاحظت أنها ذات لونٍ أبيض، تسائلت:

_ هل أمر أيضًا أن يلبس أفراد شعبه ملابس ذات لون أبيض غدًا؟!

_ لا.. مازلنا نرتدي الملابس البرتقالية، ولا يوجد أحد يرتدي لونًا آخر سوى الأميرة دروسيرا، فهي ترتدي اللون الأزرق، وقد أمر أن ترتدي أنتِ الأبيض!

اندهشت (جميلة)، ثم قالت:

_ أخبري الأمير كاظم أني لن أرتدي تلك الملابس.

_ سيدتي.. لا.. لا يمكنني فعل هذا، من الأفضل لكِ أن تقبلي.

فكرت (جميلة) قليلاً في أن هذا اللون سيكون مميزًا بين العامة، وسيسهل التعرف عليها، فأخذت منها الملابس، وغادرت الخادمة تخبر الأمير (كاظم) بكل ما دار بينها وبين (جميلة).

* * *

في اليوم التالي:

في هذا اليوم عرف (سيف) كل شئ عن تاريخ مملكة (شامة)، وأعد خطة هو و(عمّار) كي يدخلا القصر..

أما (جميلة) فقد مرّ اليوم عليها وهي في الغرفة بمفردها تتألم من جرحها حتى المساء، حين قالت لها الخادمة أن الأمير يأمرها أن تستعد لحضور الحفل..

* * *

يوم الحفل:

زُين القصر بكل أنواع الزينة استعدادًا لحفل تنصيب الأمير (كاظم) ملكًا لمملكة (شامة)، كان الجميع في المملكة متحمس لهذا الحفل، فربما يعطف عليهم الملك وهو في أسعد لحظات حياته!

عند الثانية عشر ظهرًا، كان (عمّار وسيف) يقفان أمام بوابة القصر، وكما تفاجئت (جميلة) تفاجأ (سيف) لرؤيته للقصر، (عمّار) كان أحد المسئولين عن تنظيم الحفل، فهو من يصنع الأثاث الخشبيّ، وقد أحضر (سيف) معه كمساعد له.

نجحا في دخول القصر، كان (سيف) يبحث في كل الأرجاء عن (جميلة) شعر أنها قريبة منه، انتبه لحديث (عمّار) وهو يقول له:

_ هكذا ستلفت الأنظار إلينا، لو أنها مازالت في الأسر فلن تكون هنا أبدًا.

_ معك حق.. لكني أشعر أنها هنا في مكانٍ ما.

في نفس الوقت:

كانت تسير (جميلة) خلف الخادمة، إلى مكان لا تعرفه، حتى وقفت الخادمة وطلبت من (جميلة) أن تدخل، كان ذراعها لا يزال يؤلمها، ترددت في البداية، ثم دخلت، كانت الحجرة بلا سقف، في منتصفها مقعد كبير، يجلس عليه الأمير (كاظم)، وعلى يمينه تجلس (دروسيرا)، قالت الأميرة:

_ لماذا لا ترتدي اللون البرتقالي؟ سوف أحطم رأسك.

أجاب الأمير: أنا من أمرتها بذلك.

فغرت فاها قائلة: ماذا؟!

_ لا عليكي أميرتي، وددت فقط أن تكون خادمتك مميزة مثلك.

ابتسمت (دروسيرا) في غرور: بالطبع يا جلالة الملك.. هيا أيتها الغريبة إلى غرفتي.

كانت (جميلة) تتابع الحديث في جمود، فقد تأكدت أن الأمير لن يقتلها، لذا عليها أن تستغل هذا حتى تلتقي بـ (سيف) وينجزا المهمة.

بعد ثلاث ساعات:

بدأ الحفل، تجمع الناس في الساحة والأمير (كاظم) يجلس على المنصة وبجانبه الأميرة (دروسيرا)، ومعهما الكثير من الوزراء في المملكة، كانت (جميلة) تقف خلف الأميرة، تطالع العامة محاولة التعرف على (سيف)، أو لفت نظره، فقد كانت مميزة جدًا في عينيّ كل من يراها، لكن لسوء الحظ، كان (سيف) داخل القصر، يبحث عنها!!

انتهت مراسم تنصيب الأمير (كاظم) لكن الحفل كان لا يزال مستمرًا، لاحظت الأميرة أن (كاظم) يطالع (جميلة) بين الحين والآخر، فأمرتها أن تعود إلى القصر، وأمرت أحد الحراس أن يعيدها للغرفة التي كانت تُعالج بها، حزنت (جميلة)، وفقدت الأمل في رؤية (سيف) مجددًا.

في طريقها إلى الغرفة تعثر الحارس بأحد في طريقه، تعصب الحارس كثيرًا وظل يلعن هذا الشاب، و(جميلة) تخفض رأسها!

بعدما دلفت إلى الغرفة بدقائق حاولت الخروج مجددًا، لكن الحارس منعها، حتى سمعت صوت وراء ستائر الغرفة، ارتعدت، اقتربت أكثر فأكثر، فخرج الشاب الذي اصطدم بالحارس، كادت (جميلة) أن تصرخ، لولا أنه قال:

_ هل أنتِ جميلة؟!

_ نـ.. نعم.

_ ضعي شئ على الفراش كأنه أنتِ، وتعالي معي.

_ من أنت؟!

_ أنا عمّار.. ومعي سيف لكنه متعب الآن.

شهقت (جميلة): ماذا به؟!

_ لقد سقطت إحدى القطع الخشبية على ذراعه قبل قليل.

_ خذني إليه أرجوك.

_ أخفضي صوتك، وضعي شئ على الفراش.

_ لن أفعل.. هيا خذني إليه.

تسللت ورائه حتى خرجت من الغرفة، كان الممر الذي يسيران فيه مظلمًا جدًا، حتى وصلا إلى (سيف) كان مُلقى على الأرض في حجرة صغيرة يقف فيها أكثر من ثلاثين شخصًا، هؤلاء هم العمال، اقتربت (جميلة) منه قائلة:

_ لا أصدق أني رأيتك.. حمدًا لله على سلامتك.

قال هامسًا: جميلة!! هل أنتِ بخير؟!

تدخل أحد العمال: لِمَ لا ترتدين اللون البرتقالي؟!

قال (عمّار): ليس من شأنك، عد إلى عملك يا رجل.

لم تنتبه (جميلة) إليهما، بينما قالت لـ (سيف):

_ ذراعك ينزف بشدة يا سيف.

نظر (سيف) إليها، عقد حاجبيه متسائلا:

_ هل أصيبتِ في ذراعك أنتِ أيضًا؟!

_ نعم.. يبدو أنها علامة لنا.. ألن يأتي الطبيب كي يعالجه يا عمّار؟!

أجابها: الطبيب للأمير والحاشية فقط، أمثالنا تلتئم جروحهم مع الأيام.

صُدِمَتْ (جميلة): ماذا؟! ليساعدنا أحد إذًا.

جلس (عمّار) بجانب (سيف) قائلاً:

_ لا تقلقي، سأتولى أمره.

طلب (سيف) من (جميلة) أن تحكي لهما ما مرّت به بينما (عمّار) يضمد جرحه.. جلسوا بعيدًا عن الناس كي لا يسمعهم أحد، روت لهما (جميلة) كل ما حدث معها، كذلك فعل (سيف)، وبعد أن انتهى كل منهما من حديثه، كان (عمّار) قد انتهى من تضميد جرح (سيف)، قال (عمّار):

_ كنت متأكد أن الملكة آيار على قيد الحياة.

قال (سيف) في جدية: يجب أن تخرج جميلة من القصر معنا يا عمّار.

اعترضت (جميلة): لا.. لا أريد أن أخرج.

اندهش (سيف) مما قالت، قال في غضب:

_ هل جننتِ؟! إن بقيتِ هنا ستقتلك الأميرة.

ردت عليه في ثبات:

_ لن تفعل.. يجب أن أبقى هنا كي أُحرر الملكة.. أقسم لك أن الأمير كاظم لن يقتلني.

زاد غضب (سيف): سيفعلها كما فعل مع عمه الملك من قبل كي يكون هو الملك.

ساد الصمت بينهم للحظات، ثم قالت (جميلة) بنبرة هادئة:

_ صدقني يا سيف يجب أن أكون هنا.

تدخل (عمّار): سيف.. جميلة معها حق.. أنا وأنت سنتردد كل يوم إلى القصر، وجميلة ستقوم بدورها بالبحث عن السبب والحقيقة.

تكلم (سيف وجميلة): السبب والحقيقة؟!

_ نعم.. سبب عدم قتل كاظم للملكة آيار حتى الآن.. وحقيقة أنه قاتل الملك أم لا؟!

قال (سيف): بالتأكيد هو القاتل.

تبادل (جميلة وعمّار) نظرة عدم تصديق!!

وبعد جدال بين الثلاثة اتفقوا على بقاء (جميلة) في القصر.. تركتهم (جميلة) كي تعود إلى غرفتها، لكنها ضلت الطريق، ظلت تسير في طرقات القصر وهي لا تعرف إلى أين تذهب، وكان الجميع في الحفل، خطرت لها فكرة، تسللت إلى حديقة القصر، تحاول الوصول إلى الغرفة التي سجنت بها من قبل وتوجد بها الملكة (آيار)، حتى وقفت في مكان ما في الحديقه، وغاص قلبها مما سمعت؛ فقد سمعت صوت بكاء طفل كما سمعته من قبل في حديقة القصر الخفي، نظرت أسفل قدميها، توقف صوت البكاء، نظرت حولها كي تحفظ هذا المكان في ذاكرتها، ثم ظهر الحارس المسئول عن حراسة غرفتها فجأة، وأمرها أن تعود معه وإلا سيخبر الملك، فخضعت له وسارت ورائه وعينيها لا تزال متعلقتين بالحديقة!

بعد انتهاء الحفل، تجمع العمال كي يخرجوا من القصر، كان (سيف) يتألم من ذراعه، وبينما هم يسيرون سويًا، سمع (سيف) صوت شجار عنيف بين شخصين، سحب (عمّار) من ذراعه وابتعدا عن الجميع، اقتربا من مصدر الصوت، فعلما أن الشجار بين الأمير (كاظم) والأميرة (دروسيرا)، وقفا يسترقان السمع:

_ لِمَ لم تعلن أن زواجنا سيقام بعد أسبوع؟!

_ لأنه لن يحدث يا دروسيرا.

_ ماذا؟!

_ أقصد.. أنه يجب علينا أن ننتظر حتى أتمكن من حكم المملكة، وأتحقق من ولاء كل من حولي.

_ كاظم.. إن لم أكُن ملكة مملكة شامة لن تكون أنت ملكًا.

_ لقد أصبحت ملكًا بالفعل يا دروسيرا.

_ ستكون الخائن القاتل الذي قتل عمه من أجل الحكم.

_ اصمتي.. أنا لم أفعل هذا.. أعترف أني للحظة تمنيت موته، لكني لم أفعل.

_ بل فعلت.. شعب المملكة يظنون أنك من قتلته، إن أكدتُ لهم ذلك وساعدتهم، لن تكون الملك يا عزيزي، بل ستكون سجين بجانب الملكة آيار.. التي سأقنع الشعب أنك أيضًا من قتلتها.

_ تجاوزتي حدودك يا دروسيرا، أنا لم أفعل أي شئ من هذا.

وفجأة اقترب حارسين من (سيف وعمَّار) فاضطرا إلى الهرب، خارج القصر، دون التأكد من أن الأمير (كاظم) هو القاتل أم لا؟!

* * *

(الفصل السادس)

أن تخوض مغامرة شيقة شعور ممتع لا محالة، لكن.. ماذا لو كنت وحيدًا في تلك المغامرة؟! أتكون رحلتك ممتعة أم مجرد مهمة بائسة؟! هكذا سأل (سيف) نفسه عندما وصل إلى الكوخ الصغير، فقد شعر بوحدة قاتلة بعدما التقى بـ (جميلة) وفقدها!

تسللت النسمات العليلة إلى الكوخ الصغير، بدأ عقل (سيف) يعمل بجد، باحثًا عن السبب والحقيقة، نظر حوله فلم يجد (عمّار)، خرج من الكوخ فوجده يشعل النيران في الحطب لعلها تمده بالدفء، وضع (سيف) يده على كتف (عمّار) وجلس بجانبه في صمت، قال (عمّار) باسمًا:

_ ظننت أنك نائمًا.. كيف حال جرحك يا أخي؟

_ بخير.

_ إذًا ما الذي يتعبك؟!.. لحظة واحدة.. أعلم لماذا أنت حزين؛ لأن جميلة رفضت المجئ معك.

انفعل (سيف): أنا خايف.. أعني أني خائف عليها، ماذا لو أصابها مكروه؟!

_ إنتبه إلى حديثك.. ولا تخف، صديقتك فتاة شجاعة وقوية.

_ لكن هذا الأمير لا يرحم، لقد أودى بحياة عمه من أجل الحكم!!

لزم (عمّار) الصمت وشردت نظراته، ران عليهما صمت قصير، قاطعه (سيف) قائلاً:

_ لقد أخبرتني من قبل أن ملك هذه المملكة كان والد الأمير كاظم، وبعد وفاته تولى أخيه الملك أنمار الحكم، وذلك لصغر سن كاظم في ذلك الوقت، فقد كان في السابعة من عمره، وكانت الأميرة دروسيرا ابنة أخت الملك في الخامسة من عمرها، وفي نفس العام أنجب الملك أنمار ابنة تُدعى نورسين، وهكذا عاش ثلاثتهم لأعوام، ثلاثة في قصر الملك، برأيك من منهم كان يستحق أن يكون ولي العهد؟!

_ هذه هي المشكلة، الأمير كاظم عندما أتم الثامنة عشر رأى أن الحكم من حقه، وانتشرت أخبار كثيرة بين الناس عن مشاجراته مع عمه من أجل ذلك، وقيل أيضًا أن الأميرة دروسيرا ترغب في أن يكون كاظم هو الملك من بعده، لأنها تحبه وترغب في أن تكون زوجته وملكته، لكن الملك أنمار كان يعرف طباع ثلاثتهم، وكان ينوي منح ابنته الأميرة نورسين _ رحمها الله_ لقب ولي العهد، لكنها توفت عند سن العشرين بعد مرضها الشديد، سمعت أحد الحراس في القصر يقول أنها كانت مصابة بداء القلب، بعد وفاتها مرضت الملكة، وزاد إعياء الملك، هذا ما جعل فرصة المنقلبين أسهل، وبعد عام من وفاتها قُتِلَ الملك بجرعة سُم واحدة، وهكذا توالت الأحداث حتى مجيئك.. في رأيي أنا.. كان الملك على حق؛ الأميرة نورسين _رحمها الله _ كانت أصدقهم، وهي من كانت تستحق حكم المملكه.

قال (سيف) محدثًا نفسه: إذًا لا شئ يدفعني للتعاطف مع كاظم، بالتأكيد هذا الظالم والمستبد.. هو القاتل.

* * *

الأميرة (دروسيرا) تقف فوق رأس (جميلة) وهي نائمة، لا.. بل كانت مستيقظة لكنها لا تقوى على الحركة، أخرجت الأميرة خنجرها مجددًا، ثم.. شقت عنق (جميلة) هذه المرة.

شهقت (جميلة) وهي تستيقظ فزعة من هذا الحلم، ولدهشتها رأت الأميرة فوق رأسها، نهضت من الفراش مترنحة، صرخت الأميرة في وجهها:

_ أمثالك يجب أن يناموا على الأرض لا على الفراش.

أشارت إلى الحراس إشارة ذات معنى، فاقتربوا من (جميلة) و.. غابت الفتاة عن الوعي..

فتحت عينيها بصعوبة، لتجد نفسها في الغرفة التي سُجِنت بها من قبل، تحركت عينيها في الغرفة حتى أدركت أنها نائمة فوق قدمي الملكة (آيار)، ابتسمت لها الملكة بحنو، ثم قالت:

_ مرت نصف ساعة تقريبًا منذ أن أتى بكِ الحارس إلى هنا، هل أنتِ بخير؟!

وضعت (جميلة) يدها فوق رأسها، أجابت بصوت متحشرج:

_ أنا بخير.. فقط أشعر بألم طفيف في رأسي.

قالت الملكة وهي تنظر إلى ثياب (جميلة):

_ خذي قسطًا من الراحة حتى يزول الألم.

لاحظت (جميلة) أن الملكة تنظر لثوبها في اهتمام، ضحكت (جميلة) بضعفٍ قائلة:

_ هل أعجبكِ ثوبي الجديد؟!

_ إنه.. لقد ذكرني بها!.. مَنْ منحكِ هذا الثوب يا ابنتي؟!

أجابت متعجبة:

_ الأمير كاظم.

_ إنه لأمر غريب حقًا! أخبريني بما حدث معكِ منذ أن خرجتِ من هذه الغرفة رجاءً.

عقدت (جميلة) حاجبيها، روت لها كل ما حدث، زادت حيرة الملكة، ولمعت عينيها بالعبرات، اقتربت (جميلة) منها قائلة:

_ لماذا تبكين؟!

_ لا شئ.. فقط تذكرتها.

غضنت (جميلة) جبينها، تسائلت:

_ تقصدين.. ابنتك؟!

_ نعم.. كانت نورسين تحب اللون الأبيض، وكثيرًا ما كانت ترتدي ثياب بهذا اللون.

ازدردت ريقها بألم، أردفت:

_ رحمها الله.. لا أعلم لِمَ أراد كاظم أن ترتدي هذا الثوب!

_ رحمها الله.

* * *

ركل الأمير كاظم منضدة صغيرة _كانت توضع عليها الفاكهة_ بقدمه، كان متعصبًا جدًا ويصرخ بأعلى نبرةٍ لديه قائلاً:

_ هذه آخر مرةٍ يا دروسيرا.. إن فعلتِ شيئًا آخر دون إذني سأقوم بوضعك تحت الإقامة الجبرية.

احتقن وجهها، هتفت هي الأخرى:

_ وماذا فعلتُ كي تضعني تحت الإقامة الجبرية؟! هل أخطأت لأني أردت مساعدتك؟!

_ نعم أخطأتِ.. لا تتدخلي في شؤوني ولا تمنحي أوامر لأي أحد في هذه المملكة، أنتِ مجرد أميرة مثل أي أميرة في العائلة، لا شأن لكِ في سياسة المملكة.. ولا شأن لكِ بما أفعل.

حدقت إليه، قالت بعد صمت استمر لثوانٍ:

_ لكني سأكون زوجتك، وملكة هذه المملكة، لذا يجب عليَّ حماية مملكة شامة، وحماية الملك.

_ تحميني مِنْ مَنْ؟ مِن تلك الفتاة الضعيفة!

_ ليست كما تظن، أنت من تكون ضعيفًا أمامها.

حملق بوجهها، كادت عينيه أن تخرج من محجريها، صرخ:

_ كلمة أخرى وسأقوم بتنفيذ تهديدي.

تراجعت خطوة إلى الخلف، قالت بهدوء:

_ معذرة جلالة الملك.. ما فعلته كان ناتجًا لحبي لك، أعدك أني سأُخرج تلك الفتاة من السجن، لكني لن أتوقف عن التدخل في شؤونك.

غادرت على عجل، طالعها وهي تفر من أمامه وقد هدأ قليلاً، هوى على أقرب مقعد، زاغت نظراته، همس قائلاً:

_ كيف تريدَني أن أقتلها، وهي الوحيدة التي تذكرني بها؟!

* * *

فتح (عمّار) عينيه ببطء، أدرك أن ضياء الصباح قد غمر كوخه الصغير، نهض من مكانه يفرك عينيه بيده، نظر حوله واندهش؛ فلم يجد (سيف)، خرج من الكوخ يبحث عنه، سار قليلاً حتى سمع صوت (سيف)، اقترب من مصدر الصوت، وابتسم مما رأى؛ حيث رأى (سيف) يقف مع العمال ويتحدث إليهم كأنه أحد أبناء تلك المملكة، دنا (عمّار) منهم، حيّاهم جميعًا، همس في أذن (سيف):

_ لوهلة شعرت أنك أخي الأكبر يا سيف.

بادله (سيف) الابتسامة قائلاً:

_ أنا بالفعل كذلك يا أخي.. هيا إلى قصر الملك، لدينا عمل كثير اليوم.

* * *

أوفت الأميرة (دروسيرا) بوعدها وأطلقت سراح (جميلة)، وأخذتها معها إلى غرفتها، جلست الأميرة وأمرت (جميلة) أن تقف في صمت، بينما هي تقول:

_ لسوء حظك أني في مزاج سئ اليوم.. هيا أحضري لي أدوات الزينة.

تسمرت (جميلة) في مكانها، وهي تحدق إلى الأميرة بتحدٍ، صرخت الأميرة مجددًا:

_ قلت لكِ أحضريها.

فجأة سمعا صوت آخر في الغرفة:

_ أحضريها بنفسك أميرتي.

استشاطت الأميرة غضبًا ونهضت فور معرفتها صاحب الصوت، ضغطت على أسنانها تقول:

_ لكنها هنا كي تحضر لي ما أريد يا جلالة الملك.

_ تقصدين جميلة؟!

كانت (جميلة) ترفع رأسها في كبرياء، تابع الملك حديثه:

_ جميلة ليست من خادمات الأميرة دروسيرا كي تنفذ أوامرها.. اتبعيني يا جميلة.

غادر و(جميلة) تسير خلفه، تاركًا الأميرة تشتعل من الغيظ.

أعاد الأمير (كاظم) (جميلة) إلى غرفتها التي سكنت بها من قبل، اعتقدت (جميلة) في قرارة نفسها أن الأمير يفعل هذا معها كي يزعج الأميرة (دروسيرا)؛ فهي تغار بشدة ومغرورة إلى حد كبير، والرجال يرون أن غيرة النساء نقطة ضعفهن، لذا يستغلوها في إظهار جاذبيتهم وكبريائهم، ظلت هذه الفكرة تتردد في رأس (جميلة) حتى وصلت إلى الغرفة، لكنها تغيرت تمامًا عندما دار حديث بينهما..

وقف الأمير قبالتها، قال سريعًا وبدون أي مقدمات:

_ من أين أتيتِ يا جميلة؟!

تعجبت من سؤاله، أجابته:

_ من مِصر.

_ لم أسمع بها من قبل.. لكن.. لا بأس، كيف ستعودين إلى بلادك؟!

_ فقط عند إتمام مهمتي.

_ ومهمتك هذه أن..؟ حسنًا، اطمئني أنا لن أقتل الملكة آيار.

_ أعلم أنك لن تقتلها، وكيف تقتلها وأنت تحبها، وتحب ابنتها!

وقف مذهولاً، لمعت عينيه وهو يقول:

_ كيف عرفتِ بالأميرة نورسين؟!

_ أعلم كل شئ عن المملكة والقصر.

لزم الصمت وقد زاغت نظراته، أردفت (جميلة):

_ هناك ظلم في هذه المملكة، وأنا أعلم مصدره، سأحاربه، وأتغلب عليه أيضًا، ولن أعود إلى وطني قبل أن أنجز مهمتي.. أمير كاظم، بداخلك شخصين، كل منهما عكس الآخر، أنت أيضًا في معركة، عليك أن تربح بنصفك الطيب.

ظل صامتًا للحظات، ثم قال مرتبكًا وغاضبًا:

_ أنتِ العدو الأوحد لي في تلك المملكة، كيف لي أن أنصت لحديثك؟! ابقي هنا حتى أفكر في طريقة قاسية لعقابك.

ابتسمت (جميلة): سأنتظر.. حتى تأتيني منتصرًا أمام نفسك.

كوّر قبضته، ثم تمالك نفسه ورحل من أمامها وهي لا تزال تتابعه باسمةً.

* * *

دخل (سيف وعمّار) القصر مجددًا مع العمال، لم يقوى (سيف) على الهرب من ساحة العمل، فقد كان الحراس يراقبونهم عن كثب، وقد كان العمل شاقًا أيضًا، حتى أتى المساء، أصابه اليأس خاصةً بعدما تجمع العمال كي يغادروا القصر، لكن.. فجأة سمعوا صوت جلبة داخل القصر، اضطربت صفوف الحراس في كل بقعة من بقاع القصر، فكانت فرصة جيدة لـ (سيف وعمّار) كي يدخلا، حاولا معرفة سبب هلعهم، لكن أحدًا لم يخبرهما بشئ، حتى وصلا أثناء سيرهما إلى ممر ما، سمعا إحدى الخادمات في القصر تقول:

_ لقد ماتت، الفتاة ذات الثوب الأبيض ماتت.

* * *

(الفصل السابع)

صُعِقا مما قالته، تحركا دون تفكير إلى الغرفة، نظرا إلى داخلها خلسةً، شاهدا (جميلة) نائمة على الفراش، وبجانبها الطبيب، ويقف الأمير (كاظم) والأميرة (دروسيرا) بجانبه، صاح الأمير:

_ تأكد رجاءً، لا يمكن لهذا أن يحدث.. لا يمكن.

طأطأ الطبيب رأسه، قال:

_ متأكد مما أقول، لقد توفيت الفتاة، لقد كانت مصابة بداء القلب.

صرخ الأمير بمرارة:

_ لا، لا، لا يمكن.. إنها بخير، جميلة لا تفعلي مثل نورسين، لقد فهمت ما تعنيه وجئت إليكِ كي أخبرك.. لا.. لا تتركيني.

هدرت (دروسيرا) بغضب:

_ كفاك هراء أيها الملك.. هيا إلى الخارج، دع السيدات يكملن عملهن قبل دفنها.

كأنه لم يسمعها، ظل يطالع (جميلة) وهو يقول هامسًا:

_ نورسين.. نورسين.. أبلغيها سلامي يا جميلة.

ثم سحبته الأميرة بعنف إلى الخارج، بينما (سيف) يبكي بحرقة، كاد أن يصرخ في وجه الأمير، لولا أن (عمّار) وضع يده على فمه وسحبه بعيدًا، وقبل أن يتشاجر (سيف) معه، أخرجهما الحراس خارج القصر.

ظل (سيف) يضرب رأسه في حائط الكوخ الخشبيّ، وهو يقول متألمًا:

_ لقد طلبت منها أن تأتي معي، لكنها رفضت.. ما كان عليَّ تركها، إنني أنا المتسبب في قتلها.

_ اهدأ يا أخي.

_ أهدأ؟! تطلب مني أن أهدأ وجميلة قد قُتِلتْ؟!

ازدرد (عمّار) ريقه، قال:

_ إنها لا تزال على قيد الحياة.

فغر (سيف) فاه، قال متلهفًا:

_ حقًا؟ و...

قاطعه: لا أعرف تفسيرًا لما حدث، لكن الشيخ جوان أخبرني قبل مجيئكما أنكما ستكونان كروحٍ واحدة في المملكة، وإن أصاب أحدكما مكروه سيصاب الآخر مثله، وأعتقد أن هذا حدث بالفعل بإصابة كليكما في ذراعه.

_ تقصد أني ما دمت على قيد الحياة إذًا هي كذلك؟!

_ بالتأكيد.

_ ربما سأُقتل أنا أيضًا، لكن بعدها بوقت قصير، كما حدث في إصابة ذراعي.

قال (عمّار) في حيرة: لا أعرف.. هذا ما قاله لي الشيخ جوان.

صرخ (سيف) صرخة ألم، ثم وقع على الأرض، انحنى (عمّار) بجانبه يسأله عمّا به، قال (سيف) وقد هدأت أنفاسه وزاغ بصره:

_ لا أعرف ماذا بي.. لكن قلبي.. يؤلمني.

* * *

هل أظلم القصر أم اختفى الضياء من المملكة؟! لقد كان كل شئ في القصر باللون الأسود، تمامًا كأسفل القصر!

نفق حجري مظلم، أصوات أنفاس تعلو ببطء، ثمة حياة في هذا النفق، حياة لشخص ما، ربما اثنان، أو ثلاثة، هل فتحت عينيها الآن؟ لكنها مازالت لا ترى، ولا تعرف أين هي، تحركت ببطء على الأرض، كأنها تحبو مثل طفل صغير، طفل صغير؟! صوت

بكاء الطفل الذي سمعته من قبل! إنه قريب.. قريب جدًا، لكن هذا الصوت ليس لطفل؛ بل لفتاة، لكن أين هي؟!

حاولت (جميلة) تذكر ما حدث لها قبل ساعات، تذكرت فقط كوب الماء الذي تناولته وهي في غرفتها في القصر، وبعدها لم تتذكر شئ، شعرت أنها في كهف مظلم، جال في خاطرها أنها ربما في الغرفة التي سُجِنَتْ بها من قبل، قالت بصوت أشبه بالهمس:

_ ملكة آيار.. جلالة الملكة.

لم تتلقى ردًا، كررت عبارتها، فسمعت صوت خطوات تقترب، تسلل الرعب إلى قلبها، وفجأة.. رأت ما حولها، بعدما أنارت شعلة النفق، كانت تحمل الشعلة فتاة في العشرين من عمرها، صرخت (جميلة) أولاً، ثم هدأت مع اقتراب الفتاة بهدوء، كانت ترتدي ثوب يشبه ثوب (جميلة) تمامًا، وضعت الفتاة الشعلة المضيئة في حامل مثبت على الجدار، وجلست بجانب (جميلة) التي لم تقوى حتى على الحركة، ظهرت ملامح الفتاة بوضوح، كانت جميلة جدًا، كالملائكة، قالت بصوت متحشرج:

_ مرحبًا بكِ في نفق الأحرار.

ارتعشت (جميلة)، نظرت حولها وقالت:

_ من أنتِ؟! وما هذا النفق؟!

_ أنا نورسين.

_ الأميرة؟!

ضحكت (نورسين) بعذوبة، أومأت برأسها تقول:

_ نعم.. لكني أحب اسمي بلا ألقاب.

كانت صدمة (جميلة) قوية، دارت الاسئلة في رأسها كطواحين الهواء، لكن (نورسين) لم تدعها تفكر كثيرًا، وأجابتها عما يدور في رأسها:

_ بالتأكيد كنتِ تظنين أني متوفية، لكن كما ترين، لا أزال على قيد الحياة، لكني سجينة هنا في هذا النفق منذ عام، وكي أثير غضبها، أطلقت على هذا النفق، نفق الأحرار.

_ تقصدين من؟!

_ من غيرها؟ إنها نفس المرأة التي أحضرتكِ إلى هنا.

همست (جميلة): دروسيرا!

أومأت برأسها إيجابًا، فتابعت (جميلة) حديثها:

_ كيف لها أن تفعل هذا؟! ولماذا؟! إن أمكِ الآن..

_ أعرف كل ما حدث ويحدث في المملكة، إن دروسيرا تحضر لي الطعام كل يوم، وتخبرني بكل ما هو جديد، حتى أنها أخبرتني بوجودك في المملكة، وقالت لي أنها ستحضرك إلى النفق قريبًا.. بكيت كثيرًا وحدتي الموحشة هنا، بكيت أبي حين قُتِل، وبكيت أمي حين وضعت في السجن.. بكيت.. لكن أحدًا لم يسمعني.

_ أنا سمعتك.. كنت أسمع صوت بكائك، لكنه كان يأتيني كصوت طفل صغير.

ترقرقت الدموع في عينيّ (نورسين)، قالت:

_ ربما سمعتيني لأنكِ من البواسل.

_ لا تبكي رجاءً، أنا هنا كي أحقق العدل.. وما دمتِ على قيد الحياة، ستساعدينني.

_ كيف؟!

نظرت (جميلة) حولها ثم قالت:

_ أخبريني بموعد مجئ دروسيرا، وسأخبرك بخطتنا.

* * *

كان (سيف) يستند على كتف (عمّار) وهما يسيران في القصر، بدا (سيف) متعبًا جدًا، وقفا أمام إحدى غرف القصر، صرخ الحارس في وجهيهما مانعًا إياهما من الدخول، قال (عمّار) يرجوه:

_ لابد أن نرى الطبيب، إن صديقي متعب جدًا، وهو أحد عمال هذا القصر.

نهرهما الحارس وواصل منعهما، حتى خرج الطبيب الوقور، طلب من الحارس تفسير لصوتهم العالي، تدخل (عمّار) قائلا:

_ أيها الطبيب، أعلم أنك عطوف وطيب القلب، إن صديقي متعب ويجب أن تراه وإلا سيموت.

طالعهما الطبيب في ازدراء، ثم قال:

_ حسنًا.. أدخلا.

دخلا بسرعة ودخل الطبيب خلفهما، جلسوا سويًا والطبيب يطلب من (سيف) قول شكواه، لكن (سيف) لزم الصمت وغمز بعينيه إلى

(عمّار) فنهضا سويًا، وفي أقل من ثانية كان (سيف) يكبل الطبيب ويضع خنجرًا على عنقه، بينما وضع (عمّار) كلتا يديه على فم الطبيب يمنعه من الحديث، قال (سيف) محذرًا:

_ إن صرخت صرخة واحدة سأشق عنقك على الفور ولن يهمني ما سيحدث لي.

كان الطبيب فزعًا، ينظر لهما في رعب، واصل (سيف) حديثه:

_ أخبرني بحقيقة وفاة جميلة وإلا قتلتك في الحال.

رفع (عمّار) يديه، سعل الطبيب ثم قال:

_ لقد توفيت الفتاة الغريبة، كانت مصابة بداء القلب.

ضغط (سيف) بالخنجر على رقبته قائلاً في غضب:

_ قل الحقيقة وإلا قتلتك.

ابتلع الطبيب ريقه، تردد قليلا ثم قال:

_ أنت لست من شعب المملكة، أليس كذلك؟!

أجاب (سيف): بلى.. أنا من البواسل.

قال الطبيب: وفائي للمملكة يدفعني لعدم التكلم والإفصاح.

_ وفائك كان للملك، لكنك قمت بخيانته وخيانة الملكة آيار، الملكة التي علم الجميع أنها قتلت لكنها حية ترزق.

شهق الطبيب: أنت تعلم بـ.. حسنًا فتاتك على قيد الحياة أيضًا، لكني لن أقول أكثر من هذا.

تنفس (سيف) الصعداء، حمد الله بداخله أنها حية، كاد أن يحل قيد الطبيب لولا قول (عمّار):

_ حديثك أيها الطبيب يوحي بخوفك من شئ أو أحد ما، إن كان الأمير كاظم هو من يأمرك لماذا أنت خائف إذًا؟!

احتقن وجه الطبيب، كان سؤال (عمّار) ذكيًّا، مما أربك الطبيب، لاحظ (سيف) هذا، فقال ببطء:

_ ربما لأنه لا يتلقى أوامره من الأمير كاظم.. بل من الأميرة دروسيرا!

ظل الطبيب صامتًا، فنظر (سيف وعمّار) إلى بعضهما البعض، ففهما ما سيقومان به، وضع (سيف) قطعة من القماش حول فم الطبيب، وغادر (عمّار) الغرفة تاركًا (سيف).

ذهب (عمّار) سريعًا إلى جناح الأمير (كاظم)، طلب مقابلته، لكنه رفض، حاول مرة أخرى قائلاً أنه أمر عاجل لا يحتمل التأجيل، سمح له الأمير بالدخول، كان عابسًا ومكتئبًا، سأله عن سبب مجيئه، فقال (عمّار):

_ اسمح لي أيها الملك أن أخبرك بشئ.. إن جميلة لا تزال على قيد الحياة، إن أردت معرفة الحقيقة كاملة تعالى معي إلى غرفة الطبيب.

_ ماذا؟! هل أنت مصاب بالجنون؟! لقد دُفِنَتْ الفتاة!

_ لو أردت إحضار الطبيب إلى هنا، افعل.

ران عليهما صمت قليل، ثم خرج الأمير من الغرفة مسرعًا و(عمّار) يتبعه.

وصلا إلى غرفة الطبيب، تفاجأ الأمير مما رأى، وقبل أن يثير غضبه، قال (سيف):

_ الطبيب يعمل لصالح الأميرة دروسيرا، ولن يعترف إلا بتهديد منك.

عقد الأمير حاجبيه قائلاً: ومن أنت كي أصدقك؟!

تردد (سيف) ثم قال: أنا من البواسل، وجميلة صديقتي.

اتسعت حدقتي الأمير، قال منفعلا:

_ سألقنك درسًا لن تنساه أبدًا.

ثم نادى على الحراس وأمرهم أن يعتقلوهما، صرخ (سيف):

_ لست عدوي كي أحاربك، أعلم أنك لم تقتل الملك.. جميلة لم تكن مصابة بداء القلب.. حقِّق مع الطبيب لتعرف.

أمر الحراس أن يتركوهما، قال الأمير موجهًا حديثه إلى الطبيب:

_ يمكنني قتلك في أقل من ثانية، أخبرني بحقيقة ما يقوله.

نزع قطعة القماش عن فمه، قال الطبيب محتالاً:

_ أعمل في هذا القصر طيلة حياتي، كيف أخونك يا مولاي؟!

تدخل (سيف): كما خان الملك أنمار من قبل.

انفعل الأمير (كاظم): سأقتلك لا محالة، أخبرني بكل شئ عسى أن أتركك تحيا.

حاصروه جميعًا، لم يقوى على الهرب من أعينهم وأسئلتهم، دقائق وظهرت الحقيقة أمام الجميع!

دلف الأمير (كاظم) غرفة الأميرة (دروسيرا) كثورٍ هائج، يتبعه (سيف وعمّار)، قلبوا الغرفة رأسًا على عقب، لم يجدوا الأميرة، ولم يجدوا الدليل! حتى سار الأمير إلى أبعد زاوية في الغرفة الواسعة، اقترب منها، كان يوجد صندوق كبير في تلك البقعة، طالعه لوقت قصير، ثم حرك الصندوق من مكانه، و(سيف وعمّار) يتابعان ما يفعله، حتى رفع الأمير باب فوق الأرض!.. الباب السري جدًا.. باب نفق الأحرار.

* * *

(الفصل الثامن)

قبل نصف ساعة:

أعدت (جميلة) خطة كي تصطاد الأميرة (دروسيرا) في هذا النفق، لكن خطتها ستفشل لا محالة؛ بعدما أخبرتها الاميرة (نورسين) أن (دروسيرا) تأتي إلى النفق مع حراسها، لذا لم تستطع (نورسين) مقاومتها على مدار هذا العام.. وقبل اقتراب موعد مجئ (دروسيرا) وحراسها، ساد الصمت بينهما، حتى قطعته (جميلة) بسؤالها:

_ عِندي سؤال.. أعتذر عما سأقول، لكن لِمَ لم تقتلك نورسين بالرغم من أنها تقوى على فعل ذلك؟!

ابتسمت (نورسين) من جانب فمها، قالت:

_ ولم تقتل أمي أيضًا.. لأنها وبالرغم من مقدرتها على فعل ذلك لن تقدر على فعله!

_ لا أفهمكِ.

_ سأشرح لكِ؛ هناك كهف فوق الهضبة الملساء، هذا الكهف موجود قبل بناء المملكة، وقد كان هذا الكهف العجيب مخصص لملوك مملكة شامة، يُقال أن بداخله كنوز وذهب، من أجل شعب مملكة شامة، ولا يمكن لأحد دخول هذا الكهف إلا إذا كان أميرًا وذو روح نقية، غير طامعة في هذا الكنز، ولغرابة هذا الأمر، فإن الكنوز بداخل الكهف تتجدد مع كل عهد لملك جديد، وإذا كان الملك ظالمًا، لا يمكنه عبور الكهف.. ومن حاول الإستيلاء عليه قُتِلَ داخل الكهف!

_ فهمت ما تعنيه، كاظم ودروسيرا حافظا على حياتك أنتِ ووالدتك من أجل هذا الكهف.

_ لكنهما قتلا أبي.

عادت لتبكي بألم، ربتت (جميلة) على كتفها، عانقتها بقوة، وظلا هكذا لدقائق حتى أتت (دروسيرا) مع حارسيها الوفيين، طالعتهما في غرور وازدراء، قالت ساخرة:

_ تبدوان كتوأمتين.

لم تتلقى ردًا، أردفت بقسوة:

_ الآن كل من في المملكة يعتقد أنكِ متوفية يا جميلة، حسنًا سيتحول الأمر إلى حقيقة لا تقلقي.. وأنتِ يا نورسين، لقد تجدد جرح كاظم بعد معرفته بخبر وفاة جميلة، لطالما أحبكِ أنتِ، حاولت مرارًا التقرب منه، لكنه كان يأبى، انتظرت كثيرًا حتى يتزوجني وأصبح الملكة، وأخبره أني حافظت عليكِ من أجل الكهف، فيكافئني، ويقتلك أنتِ ووالدتك، لكن.. لكنه لا يزال يحبك، كان يفعل كل ما أمليه عليه، يظلم شعبه، يتصرف بغرور، يعاقب الأبرياء، كل شيء، لكنه لم يحبني.. كم كان غبيًا.. لن أنتظر بعد اليوم، وكما قتلت الملك أنمار سأقتل كاظم، وأقتل الملكة آيار و.. وأتركِ لساعات حتى تعبري الكهف، ثم أقتلك يا أميرتي.

نهضت (نورسين) في غضب، صرخت:

_ أنتِ من قتلتي أبي وليس كاظم؟! كنت أعلم.. بالتأكيد خلقتِ دون قلب يا دروسيرا، بالتأكيد.

كانت شهقات بكائها تزداد وهي تتكلم، ارتعشت يديها، عانقتها (جميلة) مجددًا وكلا منهما تنتظر مصيرها الأليم، وفجأة! اتسعت حدقتي عيني (جميلة)، همست:

_ سيف.

شهقت (نورسين): كاظم.

لحظات وقتل (كاظم) حارسي (دروسيرا)، وقفت وحيدة، تتابع في صدمة ما تراه، كادت ألا تصدق نفسها، حتى اقترب (كاظم) منها، وصفعها بقوة على وجهها، فسقطت أرضًا وهي تصرخ، بينما صوت (كاظم) يجلجل جدار النفق:

_ لن أسألكِ كيف بُني هذا النفق، ولن أسأل عن سبب ما فعلتيه، أنتِ أسوأ من جاء على أرض المملكة.

ثم استدار ناحية (نورسين) وهي تبكي، أمسك بكلتا يديها، قال:

_ منذ أن غادرتِ عالمي وهناك قطعة مفقودة بداخلي.. أعتقد أنها قطعة من قلبي!

ابتسمت بعذوبة والعبرات تنساب من عينيها:

_ لقد كان قلبك صديقي الوحيد في هذا العالم.

سحبت (دروسيرا) خنجرها وهما يتحدثان، لكن (عمّار) سلبه منها وكبلها بحبلٍ بقوة ومنعها من الكلام ثانيةً، وقال:

_ سوف تموت تلك الفتاة إن لم تقتل أحد الليلة، هل كانت تشرب الحليب في الصغر أم الدماء؟!

ضحكت (جميلة)، دنا (سيف) منها، قال هامسًا:

_ هي جت عليا.. على فكرة أنا كمان شعرت بقطعة مفقودة لما سبتيني ومشيتي.

_ إنت بعد الجملة دي تسكت خالص.

قهقه عاليًا فانتبه الجميع لهما، قال الأمير (كاظم) لهما بود:

_ لا أعرف كيف أشكركما، يمكنني فعل أي شيء من أجلكما.

قال (سيف) ضاحكًا: أخرجنا من هذا النفق وحسب.

أضاف (عمّار): أنا أيضًا ساعدتهما يا جلالة الملك.

هز (كاظم) رأسه: أنا مدين بالشكر لكم جميعًا.

على أرض مملكة شامة:

كان (سيف) يعانق (عمّار) بشدة وكلاهما يبكي، إن الفراق مؤلم جدًا، إنه أشبه بنزع روحك من جسدك، فتصبح ميتًا على قيد الحياة!

قال (عمّار) من بين دموعه:

_ أود أن أعترف لك بشئ.. حين قلت لك أني أعلم أن جميلة لا تزال حية كنت كاذبًا، الشيخ جوان لم يخبرني بما قلته لك، فقط كانت حيلة مني كي تهدأ.

_ أنت فعـ.. حسنًا يا أخي، سامحتك.

وبجانبهما كانت (جميلة) أيضًا تبكي بين ذراعي الملكة (آيار) و(نورسين)، قالت الملكة:

_ لن أنساكِ ما دمت حية.

قالت (جميلة): ستبقى الملكة آيار وكل من في مملكة شامة بداخلي، أنا أيضًا لن أنساكم أبدًا.

تنحنح (كاظم): أعدكِ إن أنجبت نورسين فتاة سأسميها جميلة، وإن كان صبيًا فالبطبع سيكون..

صمت بينما (سيف) يمسح على كتفه في غرور، فأردف (كاظم):

_ سأسميه عمّار.

صُدِمَ (سيف): ماذا؟!

ضحك (كاظم) وقال في هدوء: سأسميه عمّار والآخر سيف.

تدخلت (نورسين) ممازحة إياه:

_ ومن قال أني موافقة على الزواج؟!

ضيق (كاظم) عينيه: أنا ظالم ومستبد، وأفرض عليكي الزواج مني.

أضافت الملكة (آيار): وأنا أيضًا أفرض عليها ذلك.

رفعت (نورسين) كتفيها قائلة:

_ إذًا لابد أني سأوافق.

بعد دقائق صعدت (نورسين) الهضبة الملساء، وأشارت لهم من الأعلى، بينما (سيف وجميلة) يتجهان إلى حيث جاءا.

عبرا الغابة حتى وصلا إلى الكوخ، وجدا الشيخ (جوان) عند الكوخ، حياهما بحرارة، قال مبتسمًا في فخر:

_ أسرعتما إنجاز المهمة، أنتما أذكى، وأقوى، وأشجع، اثنين من البواسل.

قال (سيف): أتمنى أن تكون مهمتنا القادمة يسيرة.

رد عليه الشيخ (جوان) في مكرٍ:

_ ستكون كذلك بكل تأكيد.

أعطاهما ملابسهما، ثم سارا ورائه حتى وصلا إلى السرداب، وقبل أن يعبرا، التفتا (سيف وجميلة) إلى المملكة، قالا سويًا في شجن:

_ وداعًا مملكة شامة.

ثم دلفا السرداب، وياللعجب، بعد خمس دقائق فقط من السير وجدا نافذة مفتوحة، نافذة تطل على القصر! عبرا النافذة فأصبحا داخل القصر، وفجأة.. أغلقت النافذة وظهر الحائط بدلاً منها.. نظرا حولهما فوجدا (سارة) تبتسم لهما كعادتها، قالت:

_ مرحبًا بعودتكما.

* * *

(السرداب الثاني)

(قرية كروما)

(الفصل التاسع)

كانت تحية (سارة) حارة جدًا، حتى أنهما شعرا أن تلك الفتاة كانت تفتقدهما كثيرًا، قالت في ودٍ بعد دقائق من وصولهما:

_ أتمنى أن تنتهي المهمة الثانية سريعًا.

قلَّ حماس (جميلة)، وقالت في يأس:

_ بس إحنا لازم نشوف أهالينا وأصحابنا ونطمنهم علينا بعد الغياب ده كله.

قالت (سارة): لا تقلقي بهذا الشأن، فَكري فقط في إتمام مهمتكما، ثم إنه غير مسموح لكما الخروج من القصر قبل...

قاطعها (سيف): قبل إتمام المهمة.

_ أحسنت.

ابتسم (سيف) متظاهرًا بالغرور، مما جعل (جميلة) تغضب منه، قال لها ممازحًا:

_ أنا عايز أفهم إحنا ليه لما بنيجي هنا بتتعصبي وتتدايقي، ولما بنعدي السرداب بتبقى شجاعة جدًا وقوية.

ضيقت (جميلة) عينيها قائلة:

_ يمكن إنت اللي بتعصبني ولما بنفترق ببقى كويسة.

قطب جبينه يقول: بقى كده يا جميلة؟! شوفي مين هيساعدك وينقذك بعد كده.

تدخلت (سارة) وعلى وجهها علامات يأس وملل:

_ ألن تنتهي تلك المشاجرات بينكما أبدًا؟!

نظرا لبعضهما في غرور ولزما الصمت، أردفت (سارة) بجدية:

_ والآن هيا إلى العمل.

اقتربت من اللوحة الثانية على الجدار فظهرت بوضوح؛ كانت لوحة لـ شاب في منتصف العشرينات تقريبًا، قامته طويلة، ذا بشرة يميل لونها إلى السمرة، وكما حدث في أول مرة؛ تحركت عينيه! لكن هذه المرة لم تصرخ (جميلة)، قالت (سارة) في عجل:

_ إن هذا الفتى اسمه ريّان.. إحذروا من هذا السرداب وتلك القرية الذاهبين إليها، إن أهلها ذوي ألوان متعددة!

تسائل (سيف) متعجبًا: ماذا؟! ماذا تقصدين بأن.. ألوانهم متعددة.

ردت عليه سريعًا: ستعرف كل شئ.

وقبل أن ينطق أي منهما بكلمة واحدة، ضغطت (سارة) على اللوحة فاختفت اللوحة وظهر الظلام، أسرعا إلى داخل السرداب وصوت (سارة) يعم المكان بقولها:

_ إلى قرية كروما.

لحظات من الصمت داخل السرداب، أمسكت (جميلة) بذراع (سيف) بالرغم من أنها لا تراه، همس قائلاً:

_ متخافيش.. أنا جمبك.

فتحت فمها كي ترد عليه، لكنها لم تقوى على الكلام بعد سماعهما صوت شئ يزحف بالقرب منهما، وفجأة.. أُضئ السرداب، التفت كل منهما إلى كل زواية في السرداب، أشار (سيف) إلى الشعلة المضاءة والمثبتة على الحائط وهو يقول:

_ تفتكري ولعت لوحدها؟!

ردت عليه وجسدها يرتعد:

_ مش عارفة بس المهم إنها نورت المكان.. إمسكها بإيدك إنت بقى عشان تنور طريقنا.

أومأ برأسه، وتناول الشعلة المضاءة وحملها بيدها، نظرا أسفل أقدامهما فوجدا نفسيهما يقفان على درج، نزلا ببطء و(سيف) يقول:

_ أنا كنت فاكر إن السراديب كلها زي بعض.

_ أكيد مختلفين يعني يا سيف، إنزل بالراحة أحسن السلم تقع بينا.

_ تقع إيه يا بنتي ده سلم حجر.

واصلا نزولهما حتى آخر درجة، وظهر طريق مستوى وفارغ، لكنهما كانا خائفين جدًا؛ لسماعهما صوت زحف شئ بالقرب منهما، وصوت همهمات ترتفع كلما سارا خطوة واحدة! ومع ذلك تجاهلا كل هذا وواصلا سيرهما المرهق لمدة نصف ساعة تقريبًا.

شعرا بخوف وذعر شديدان حين أُطفِئت الشعلة، أمسكت (جميلة) بذراع (سيف) مرة أخرى تقول:

_ ده طفيت لوحدها زي ما ولعت لوحدها! هنعمل إيه يا سيف؟

جائها الرد من شخص آخر:

_ لا شئ.. سأشعلها مجددًا.

شهقا لسماعهما الصوت، وفي أقل من ثانية أُضئ المكان مجددًا، وشاهدا بوضوح وجه الشيخ (جوان)، تنفس كل منهما الصعداء، ضرب سيف كفيه ببعضهما البعض قائلاً:

_ لأ ما هو مش معقول كده يا شيخ جوان.. كل مرة تخضنا وترعبنا كده.. المرة الجاية هنروح فيها.

ابتسم الشيخ وهو يمسد لحيته قائلاً:

_ أعتذر لكما.

قالت (جميلة) بانفعال: طب وطفيت الشعلة ليه بس من الأول؟! غاوي تفرهدنا معاك.

رد عليها: لم أكن أنا من أطفأتها؛ إنه زاحف.

لمعت عيني (سيف) وهو يقول:

_ ممكن تعرفنا عليه معلش عشان أنا حاسس إنه جمبينا من بدري.

اتسعت ابتسامة الشيخ (جوان) قائلاً:

_ على الرحب.. تعال يا زاحف.

وفجأة ظهر زاحف على الشعلة التي يمسكها (سيف)، هتف (سيف) مستنكرًا:

_ زاحف مين ده بُرص.

قهقه الشيخ قائلاً: في قرية كروما يُدعى هذا المخلوق زاحف، وليس هو فقط؛ كثير من الحيوانات والحشرات والزواحف لها أسماء ووظائف مختلفة.

قالت (جميلة) مذعورة: أنا بخاف من الحشرات والحاجات دي أوي.

رد عليها الشيخ: لا تخافي.. على أية حال، أنتِ أقوى منهم بكثير.

لزمت الصمت لكنها كانت لا تزال خائفة، بينما (سيف) في حالة سكون يُفكر، قاطع سكونه الشيخ (جوان) يسأله:

_ ماذا بك يا بُني؟!

انتبه له ودنا منه قليلاً يجيبه:

_ مفيش.. أنا بس كنت بفكر في اسم القرية.

ضيق الشيخ عينيه، قال:

_ ملاحظة قوية يا سيف.. هذه القرية لم يكن لها اسم، كانت تُسمى دائمًا باسم حاكمها، ومنذ وقت ليس بقصير انقلب حالها رأسًا على عقب، فتجمدت القرية حتى أتى إليها أحد البواسل، وهو من أطلق عليها هذا الاسم.

قال (سيف) متعجبًا: طب لما كان فيه باسل فعلاً جه قبلينا، ليه اتجمدت القرية واتكلفنا إحنا بالمهمة دي؟!

تبدلت ملامح الشيخ إلى ضيق وحزن، أجابه:

_ لم يُنجز الباسل مهمته.

فتحت (جميلة) فمها، قالت:

_ إوعى يكون إتقتل؟

هز الشيخ رأسه نافيًا، تابع حديثه:

_ دعيني أفسر لكما الأمر وأوضح مهمتكما.. لقد جاء هذا الباسل من قبلكما كي ينقذ أهل القرية من طغيان شخص واحد.. ولكن بعد فترة قصيرة أصبح واجبه أن ينقذ شخص واحد من طغيان أهل القرية، ولسوء حظه وبطء تفكيره لم يستطع أن ينجز مهمته، فاضطر هذا الشخص إلى الفرار، حتى يأتي أحد من البواسل مجددًا.

عقد (سيف) حاجبيه يسأله: والشخص ده هو ريان؟

أومأ رأسه إيجابًا: نعم.. والباسل صديقكما اسمه إيهاب.

تدخلت (جميلة) بعدما سمعت حديثهما في صمت:

_ واضح إنها مهمة صعبة أوي، ولازم ناخد بالنا زي ما سارة قالت.. ممكن تقولنا تفاصيل أكتر عن أهل القرية دول.

أخذ الشيخ (جوان) الشعلة من يد (سيف)، ثم هزها بعنف فوقع زاحف على الأرض، رفع الشيخ قدمه بخفة، ثم ضغط بحذائه بقوة على زاحف، ورفع قدمه بعدما قتله.. قال الشيخ:

_ يمكنه إحداث الفتنة أيضًا كما يشعل النيران.

لزما الصمت في ذهول، أردف الشيخ:

_ الأمر بسيط جدًا، يحتاج فقط إلى روح نقية، وعقل يعمل بجد.. عدوكما شخص يُدعى عدنان، وهو ساحر.. بالطبع فهمتما ما سأقول! إنه هو من أثر على أهل القرية بسحره، وأيضًا بما يمنحه لهم، والسبب في فشل إيهاب هو.. تأثره بذلك السحر أيضًا.

طالعا بعضهما في صمت قاتل، تسائل (سيف):

_ طيب وإحنا هنحاربه إزاي كده؟!

انفرجت أساريره وهو يجيبه:

_ كما قلت؛ الأمر يحتاج فقط إلى روح نقية، وعقل يعمل بجد.

قالت (جميلة) مستسلمة:

_ طب ومين هيساعدنا في القرية هنا؟!

نظر إليها في أسف، قال:

_ يؤسفني أنه لا يوجد معين لكما سوى ريّان!

قال (سيف) سريعًا: بس ده أكيد في مشكلة، وممكن ما نتقابلش معاه.

ربت الشيخ على كتفه وهو يقول:

_ لا تقلق.. أثق بكما.. هيا إلى الساعة الرملية، انتظرا لنصف ساعة، وادخلا القرية.

مازحه (سيف): مش هتقولي بقى إيه حكاية الساعة ده؟!

لزم الشيخ الصمت وهو يبتسم في مكرٍ.

انتظرا حتى انتهت النصف ساعة، وسارا سويًا ببطء، ظهرت القرية أمامهما، كانت مظلمة، النظر إليها يقبض الروح، ويجلجل الفؤاد، رفعا رأسيهما إلى السماء يطالعان طيران الطيور المختلفة فوقهما، وفجأة.. نشبت مشاجرة بين الطيور الغريبة الغير متجانسة، ارتفعت أصواتهم الغاضبة، حتى انتهت المشاجرة بينهم بمقتلهم جميعًا فيما عدا واحدًا!

دنا الشيخ (جوان) منهما ببطء، قال:

_ كانت مباراة بينهم.

غضن (سيف) جبينه قائلاً:

_ ظننتهم يتشاجروا.

ران عليهم صمت قليل، قطعته (جميلة) بقولها:

_ لم أتوقع أننا سنأتي إلى هنا مع حلول الليل!

رد عليها الشيخ: هنا لا يوجد نهار.. أيامهم كلها ليل منذ غروب قلوبهم وغياب عقولهم.

قالا سويًا: يا إلهي!

حاول الشيخ (جوان) أن يخفف عنهما، قال:

_ لا حاجة لتغيير ملابسكما هذه المرة، فعلى أية حال سيعرف الجميع بوجودكما، كما أن ملابسهم مختلفة.. وبالرغم من ذلك، يجب أن ترتديا تلك الملابس.

أخرج من حقيبته القماشية، ملابس مصنوعة من الكتان، تناول (سيف) الملابس منه أولاً، دلف إلى كوخ صغير خارج حدود القرية، كانت ملابسه ذات لون رمادي، أما (جميلة)، فكان ثوبها ذا لون أبيض!

قالت فور تجمعهم مجددًا: يبدو أني سأرتدي هذا اللون في كل مهماتي!

غادرهما الشيخ (جوان) قلقًا، دلفا سويًا إلى القرية، كان الصمت يخيم عليهما، كذلك الخوف، فقد كانا يسمعان أصوات همهمة في أماكن فارغة، ويشاهدان حيوانات خطيرة بالقرب منهما.. بعد سيرٍ استمر لخمس دقائق لاحظا أنه لا أثر لإنسان في تلك القرية، وقفا في منتصف الشارع ينظران حولهما، حتى تناهى إلى سمعهما صوت حشد كبير، تتبعا الصوت حتى وصلا إلى ساحة واسعة تمتلئ بالناس، كانوا يلتفون حول شئ، اقتربا أكثر، فأمسكت (جميلة) بيد (سيف) خوفًا من تكرار ما حدث في مملكة (شامة)، وحين وصلا إلى ما يلتف الناس حوله، شاهدا منظر مهيب؛ كان (ريّان) سجين داخل قفص حديدي، وهناك صخرة كبيرة معلقة فوقه في الهواء! خرج أحد الرجال من الصفوف، كان يرتدي عباءة باللون الأسود كعينيه، وكان له جسدًا هائلاً كثور، صاح فجأة بكلمات غير مفهومة فتحركت الصخرة في الهواء وسقطت على القفص المسجون بداخله (ريّان).

* * *

(الفصل العاشر)

صرخت (جميلة) بأعلى نبرة لديها، فنظر كل الجمع لها متعجبين، استعاد (سيف) شجاعته وأخفى (جميلة) خلفه، وقبل أن يتلقى ردود أفعالهم، صاحوا جميعًا صيحة تعجب، فقد كان (ريّان) يقف بجانب القفص المهشم، صرخ الرجل ذو العباءة السوداء:

_ مستحيل.. كيف خرجت من القفص قبل سقوط الصخرة؟! أخبرني كيف فعلتها؟!

رد الشاب باسمًا: يا سيد عدنان، ألن تتوقف عن محاولة قتلي؟!

زمجر الرجل ككلبٍ أوشك على التهام عظمة، اقترب من الشاب حتى أصبح في مواجهته، قال بصوت كفحيح الأفعى:

_ لن أتوقف أبدًا حتى تموت، أو تخبرني بالتعاويذ التي تتبعها.

كان الشاب رابط الجأش، حيث ابتسم يقول ساخرًا:

_ لكني أخبرتك بالتعويذة من قبل يا سيد عدنان.

زاد الهمس بين الناس، صاح (عدنان):

_ ماذا؟! أي تعويذة؟!

رد عليه (ريّان) بصوت صادق ذا تأثير قوي على القلب قبل الأذن:

_ تعويذة نقاء القلب والروح يا سيدي، أن يكون قلبك صافيًا كالحليب، عذبًا كمياه النهر، رحيمًا ودودًا إلى غيره، أن يكون عملك كله لله، حسن ظنك به، توكلك عليه، مناجاتك له، و.. استجابته لك، رحمته بك من قسوة العالم، نوره المحيط بك في الظلام، نقاء قلبك يجعل منك شخصًا راضيًا، وإذا تسلل الرضا إلى قلب نقي، تطهرت روحه، وأصبح خفيفًا كالريشة، يمكنه الخروج

من قفص حديدي، الطيران من فوق الجبل، النجاة من الموت، والصمود أمام الشر، وبدون أي سحر يا سيدي.

احتقن وجه (عدنان) وبدا أنه سينفجر عن قريب، التفت (سيف) إلى (جميلة)، كانت في عينيه نظرات فخر، وفي عينيّ (جميلة) ترقرقت الدموع، عادا يطالعا (ريّان)، كان ثابتًا كالوتد، والناس من حوله ينظرون إليه في حيرة، توجه (عدنان) ناحيتهم، هتف:

_ ماذا بكم؟! هل تصدقون ما يقوله، إنه مجرد هراء! السحر والتعاويذ التي علمتكم إياها يمكنها فعل أي شئ.

طالعوا بعضهم البعض في حيرة أشد، خرج من بين الصفوف شابًا في الثلاثين من عمره، قال محاولاً التظاهر بالشجاعة:

_ ولكن.. ولكن تعاويذك لا يمكنها قتل ريّان!

رد عليه في غضب جامح:

_ سأقتله.. بالتأكيد سأقتله، أحتاج فقط إلى بعض الوقت كي أتمكن من.. كي أتمكن من إتمام تعويذة قتله.

رد عليه (ريّان) في ثقة:

_ لن تتمكن من قتلي إلا بمشيئة الله.

ضغط (عدنان) على فكيه بحدة، طالع عدوه بقسوة وقال:

_ سأعطيك فرصة.. فرصة أخيرة كي ترحل من القرية، أمامك عشر ساعات فقط، إن وجدت لك أثرًا بعدها في قريتنا سوف أقتلك.

قال (ريّان) مثيرًا غضبه:

_ حسنًا.. كما تريد.. سأنتظر حتى أرى كيف ستقتلني.

زمجر (عدنان) مرة ثانية، وغادر الساحة، لحظات وبدأ يتفرق الجمع، بقي (ريّان) وحده يطالعهم، اقتربا (سيف وجميلة) منه، قال فور أن رأيهما:

_ مرحبًا بكما.

تسائل (سيف) في ذهول: هل تعرف هويتنا؟!

أجابه: يمكنني معرفة القلوب الطيبة، أشعر بها جيدًا.

ابتسم (سيف) بصدق، قال:

_ أنت رائع وجميل جدًا يا ريّان، أنا سيف، وهذه جميلة صديقتي.

هز رأسه يُحييهما في أدب، قال:

_ أشعر أنكما ستنجزان المهمة سريعًا.. هيا إلى منزلي يا رفيقاي، فقط اتبعاني بحذر.

تبعاه بحذر، ففي شوارع القرية كان يمارس الناس السحر، وكان كل شئ خطر، ليس كما ظنا (سيف وجميلة) في إمكانية إصابتهما بضرر، ولكن الخطر كان يكمن في النظر لما يفعلون! فقد يروق لك قدرة رجل عجوز في تحريك حمل ثقيل عن طريق السحر، أو يعجبك إنجاز مهامك الحياتية الصعبة بكلمة واحدة أو كلمتين، أو تلهث راكضًا وراء معلم السحر كي يعلمك تعويذة سحر أسود تلقيها على عدوك.

وصلوا إلى منزل (ريّان) الحجري، كان منزلاً بسيطًا، ذا طابق واحد، يتوسطه ردهة متوسطة الحجم، وعلى كل جانب غرفة صغيرة.. دلفوا في صمت، قال (ريّان) فور دخولهم:

_ لا يمكنك معرفة الليل من النهار هنا، لكني أنظم وقتي جيدًا، وبعد ساعتين موعد نومي.. هل تأكلان معي الفطائر؟! أعلم أنها ليست لذيذة، فأنا من أعدها، لكنها قد تسد جوعك.

ابتسما وتناولا منه الفطائر، ولدهشتهما كانت لذيذة، تبادلوا أطراف الحديث عما جرى منذ قليل، بدأ (سيف) أولاً:

_ أعتقد أن أهل القرية وقعوا تحت تأثير إحدى تعاويذ عدنان.

هز (ريّان) رأسه نافيًا، قال:

_ لا يا أخي، إنها الفتنة؛ لقد فتنهم بسحره وقدراته التي يمنحهم إياها بتعليمهم السحر، وهذا أقوى من إلقاء تعويذة عليهم.

اندهشت (جميلة) قائلة: أظنك على حق، فالبرغم من حيرتهم بعد حديثك إلا أنهم استسلموا له بإرادتهم.

أضاف (سيف) وهو يتناول كوب الماء:

_ لكن هناك شخص وقف في مواجهة عدنان، كان مترددًا لكنه تشجع وعارضه.

نكس (ريّان) رأسه، قال في حزن وأسى:

_ إنه السيد إيهاب.

قالا (سيف وجميلة) معًا: ماذا؟! الباسل؟!

أجابهما: نعم.. إنه في حيرة من أمره، وقد حاولت مساعدته كثيرًا لكني فشلت، وكان من الممكن أن تنتهي قريتنا في أي وقت، لذا لجأت إلى السرداب مرة ثانية.

تنهد (سيف)، قال في حماس:

_ ستنجح هذه المرة يا ريّان، سننجح معًا.

تسائلت (جميلة): أود أن أعرف كيف وقع السيد إيهاب تحت تأثير عدنان؟

نظر إلى الفراغ قائلاً:

_ كما قلت؛ إنها الفتنة، وكانت نقطة ضعف السيد إيهاب هي زوجته وابنته في عالمكم، وقد أغواه عدنان بقدرته على أن يريه زوجته وابنته من دون أن يرحل إليهما، رفض السيد إيهاب تصديقه مرارًا، لكن في إحدى المرات تمكن من إحداث حيلة خبيثة، حيث أسمعه صوت بكاء ابنته، فهرع إليه متألمًا على ابنته، وخضع رغمًا عنه ونسي مهمته، وظل سجينًا هنا دون علمٍ أو إدراك منه.

سأله (سيف): ماذا تقصد بـ دون علمٍ أو إدارك منه؟!

أجاب آسفًا: ألقى عدنان تعويذة عليه أفقدته ذاكرته نوعًا ما، ففي الفرصة التي أُتيحت لي وتحدثت معه، تمكنت من مساعدته في تذكر هويته، لكن بعد أن افترقنا عاد كما كان.

غمغم (سيف): سنساعده بكل تأكيد.

شعرت (جميلة) بالنعاس، لاحظ (ريّان) هذا، فقال:

_ يمكننا أن نذهب إلى النوم الآن، فهو لن يتمكن من إيذائي بعد انتهاء العشر ساعات.. ادخلي يا جميلة إلى هذه الغرفة، وأنا وسيف سوف ننام هنا.. وددت لو تذهبي إلى حياة، لكنها تبدلت هي الأخرى.

تسائلت (جميلة) في حيرة: ومن هي حياة؟!

أجاب: إنها إبنة خالي، لكن حالها أصبح كحال أهل القرية.

نظرت له في أسى، ثم دلفت إلى الغرفة التي أشار عليها، ونامت في الحال.. في حين افترش (سيف) الأرض في الردهة، و(ريّان) يعيد الأطباق إلى الغرفة الأخرى، عاد وافترش الأرض هو الآخر، سأله (سيف) بعد دقائق من الصمت:

_ من أين تأتي بتلك الثقة يا ريّان؟!

_ إنها الثقة بالله، تجعلك تهزم جيشًا بأكمله، إن قلت فقط، بإذن الله.

أغلق (سيف) عينيه يقول هامسًا:

_ بإذن الله.

* * *

بعد ساعات لا يعلم أحد بعددها طُرِقَ باب منزل (ريّان) بشدة، فاستيقظوا جميعًا، وفتح (ريّان) الباب قبل أن يتم تحطيمه، فرأى أحد مساعدي (عدنان) الغلاظ، هتف الرجل:

_ السيد عدنان يريدك أنت وأصدقائك.

زاغت نظرات (ريّان)، وقال متلعثمًا:

_ وماذا يريد السيد عدنان من.. من أصدقائي؟!

_ ستعرف كل شئ حين تأتون معي.

لم يجد (ريّان) مجالاً للهرب، ولم يكن بوسعه أن يكذب، فطلب من رفيقيه أن يذهبان معه، وهمس إليهم قبل أن يتحركوا:

_ أنتما الاثنان كل منكما نقطة ضعف للآخر، فلنجعل نقاط ضعفنا قوة، كونا على فطرتكما وستكون الأمور على ما يرام.

ذهب ثلاثتهم مع الرجل الضخم، حتى وصلوا إلى قصر كبير، إنه القصر الخفي! دلفوا إلى حيث أمرهم الرجل، فوجدوا (عدنان) يجلس على مقعد كبير يلمع كالذهب وينتظرهم، أحدث صفيرًا مزعجًا بمجرد أن وقفوا أمامه، قال متعجرفًا:

_ يبدوا أن أعدائي كُثُر، لا بأس.. يعجبني اللعب معكم.

رد (ريّان) في ثبات:

_ في الألعاب يربح قليل الكلام، كثير الفعل.

نظر له بنظرات حارقة، ولزم الصمت، تشجع (سيف) وقال:

_ هل يمكننا معرفة سبب استدعائنا يا سيد عدنان؟!

طالعه (عدنان) من رأسه لأخمص قدميه، ثم نهض من مكانه ودار حولهم قائلاً:

_ أردت فقط أن أرحب بك يا سيف أنت وجميلة.

تفاجأ للحظة، ثم أدرك أن معرفة أسمائهما أمرًا ليس صعبًا على (عدنان)، رفعت (جميلة) كتفيها في لامبالاة وقالت:

_ ونحن لا نريد ترحيبك.

ضحك (عدنان) باستفزاز، قال وهو لا يزال يضحك:

_ كما قلت، يعجبني اللعب معكم.. ما رأيك يا جميلة في أن تشاهدي والديكِ؟ وتأخذي حقك منهما إن أردتِ.

ارتعدت (جميلة) وارتعشت شفتيها لكنها لم تتكلم، نظر لها (سيف) بعطفٍ، وقال لـ (عدنان) متعصبًا:

_ لن تفلح حيلك معنا يا عدنان.

توجه (عدنان) لـ (سيف) يبتسم بنظرات ماكرة، ووضع يده على كتفه قائلاً:

_ فكر يا سيف، ربما تنجح حيلي إن أردت معرفة من كان المتسبب في وفاة والدك وتشردك في الشوارع.

زم (سيف) شفتيه، صاح (ريّان):

_ أعلم أنه لا يمكنك الوصول إلى العوالم الأخرى، لن تفلح حيلك هذه.

انفعل (عدنان): بل يمكنني الوصول إلى عالمهما، وقد فعلت ذلك من قبل مع إيهاب.

ارتفع صوت (ريّان): كذب، أنت من خدعته وأفقدته ذاكرته.

عقد (عدنان) يديه خلف ظهره، قال:

_ هو من خضع لي بإرادته، وبعدها...

كور قبضته بقسوة، وأردف:

_ وبعدها تمكنت منه، كما سأتمكن من ثلاثتكم.. فقد غيرت طريقة لعبي للتو، فلِمَ أقتلكم؟! سأتعاون معكم خير من ذلك.

مد يده كي يصافحه، لكن (ريّان) طوى يده وقال محذرًا:

_ لن نتعاون معك أبدًا، ولن تفلح أبدًا يا عدنان، لن تفلح.

همّ بالرحيل فتركه (عدنان) يغادر، وتبعه (سيف وجميلة) في حالة يرثى لها، عادوا أدراجهم إلى المنزل، لم ينطق أي منهم بكلمة، دلف (ريّان) إلى الغرفة التي يعد بها طعامه، هدأ قليلاً وهو يصنع الطعام، كانت شفتاه تتحركان بكلمات لا تُسمع، كان يسبح ويستغفر ويناجي ربه.

بينما جلست (جميلة) شاردة، ضمت ركبتيها إليها وهي تتنهد بحزن، دنا (سيف) منها وجلس بجانبها يطالعها في صمت، تنحنح ثم قال:

_لا تنزعجي مما قاله هذا الساحر اللعين.. لا أعلم ما الذي يحزنك لكن لا شئ حقًا يستحق أن تحزني لأجله.

رفعت رأسها وردت عليه في حزن وألم:

_ حتى وإن كان هذا الشئ والديك؟

ابتلع (سيف) ريقه آسفًا لأجلها، أخفض صوته قليلاً وهو يقول:

_ والديكِ بخير لا تقلقي.

قالت بغضب: لست قلقة عليهما، أنا..

_ لا تحملي في قلبك ذرة غضب منهما، هذا شعور سئ!

ترقرقت الدموع في عينيها، قالت:

_ وهما؟! لقد كانا يحملان في قلبيهما كل معاني الغضب نحوي، لم يفكر أحد منهما بي وهما يتشاجران كل يوم بسبب أمورهما التافهة، عشت حياة بائسة، أُصيبت باكتئاب لمدة عام كامل، ووُضعت في مصحة للعلاج النفسي، وبعد أن خرجت منها بشهرين، ظننت أن الأمور ستكون على ما يرام بجانبهما، لكنهما سافرا إلى دبي،

وتركاني وحيدة حتى أنهي دراستي وأسافر إليهما، كنت وحيدة جدًا.

أسرع يقول: أنتِ تنظرين إلى الأمر من ناحيتك فقط، هما والديكِ، وبالتأكيد يحبانكِ بشدة، وهذه طباعهما، وإن كانت طباعهما قاسية، فقد جعلت منكِ فتاة عطوفة، طيبة، ونقية.

نظرت له للحظات، وانهمرت دموعها على وجنتيها، تابع حديثه:

_ لا تعطي للحزن فرصة كي يقتحم حياتك، ابني جدارًا عاليًا بينكِ وبينه، وابقي خلفه تبتسمين، لا تتوقفي عن رسم الابتسامة على وجهكِ.

ابتسمت بعذوبة، فابتسم هو بدوره لها، ران عليهما صمت قصير، قطعته هي بقولها:

_ وأنت يا سيف.. ألم يزعجك ما قاله عدنان؟

مسّد لحيته، قال:

_ أراد عدنان أن يعرفني على من تسبب في موت أبي، لا يعلم أنني أعرفه!

تفاجأت قائلة: تعرفه؟! رجاءً أخبرني بما حدث معك منذ أن افترقنا.

تنهد بعمق، قال:

_ تعلمين أن أمي متوفية منذ أن كنت في السادسة من عمري، كان أبي يحاول جاهدًا كي يعوضني عن عدم وجودها، وقد نجح في أن يكون أب جيد، ورفض أن يتزوج، وهكذا عشنا سويًا حياة هادئة، إلى أن أتى عمي إلى منزلنا، وعرض على أبي مشاركته في مشروعٍ كبير، وقد كان أبي يثق فيه كثيرًا، ولم يشك للحظة، أن

عمي محتال، وفجأة صرنا في الشارع، مات أبي، وتركني وحيدًا، عملتُ ليلاً نهارًا كي أنفق على نفسي وأُكمل دراستي.

_ يا له من رجل.. ولِمَ لم تأخذ حقك منه؟!

_ كان ماهرًا في الاحتيال، لم أستطع استرداد حق أبي منه.

قالت في عطف: لكنك أفضل منه بكثير يا سيف.

ابتسم قائلاً: طالما قلتِ أني أفضل منه، إذًا أنا أفضل منه.

ضحكت: بالتأكيد أفضل منه، حتى أنك مصور عظيم.

هز رأسه باسمًا، ثم نهض فجأةً يفكر، سألته (جميلة) عما يفكر به، لكنه لم يرد، حتى خرج (ريّان) من الغرفة يحمل الطعام بيديه، قال:

_ أرجو أن يعجبكما طعامي كما في الأمس.

تكلم (سيف) بسرعة:

_ أود أن أعرف شيئًا يا ريّان.

أشار له (ريّان) كي يتكلم، فقال:

_ علمتُ أن إيهاب هو من أطلق اسم كروما على قريتكم، هل هذا صحيح؟!

أجاب بعد أن وضع الطعام على الأرض:

_ نعم هو من أطلق عليها هذا قبل أن يخضع لعدنان.

هز رأسه في صمت، قالت له (جميلة):

_ لماذا تهتم بهذا الاسم يا سيف؟!

قال: أنتِ لا تعرفين ما هي الـ كروما، في عالمنا تُستخدم الـ كروما في الإعلانات التلفزيونية وغيرها، فهي الخلفية التي توضع خلف الممثل أو المؤدي، وغالبًا تكون ذا لون أخضر.

سألته (جميلة) في فضول:

_ ولماذا يستخدمونها؟!

_ يمكن استبدالها ووضع أي خلفية أو منظر بدلاً منها، فهي تستخدم لهذا الأمر، كي يتم تركيب مناظر معينة ليست حقيقية.

اتسعت عينيّ (ريّان) في اندهاش، قال:

_ تقصد أن يكون منظر النهر على سبيل المثال خلفي، وأنا لست أمامه!

ضحك (سيف) بهدوء: بلى، لكن هذا الأمر يصعب عليك فهمه، فهناك أيضًا الكاميرا و..

قاطعه: وما هي الكاميرا؟!

ضحك (سيف) مرة أخرى وقال:

_ هذه قصة طويلة يا صديقي، فأنا شخصيًا قد ادخرت أموالي لمدة عام كي أشتريها، ثم إنني لن أقدر على وصف عالم بالكامل لك.

قل حماس (ريّان)، وابتسم في هدوء يقول:

_ معك حق يا أخي.

بدأوا في تناول الطعام، وبعد دقائق عادوا ليتبادلوا أطراف الحديث مجددًا، فقال (سيف):

_ حتى الآن لا أعرف ما هي مهمتنا بالتحديد! فأنت يا ريّان تستطيع حماية نفسك جيدًا.

رد عليه (ريّان): لكني أحتاج مساعدتكما، فإن كنت أنا الناجي الوحيد، فباقي أهل القرية مازالوا يغرقون، مهمتكما هي مساعدتي في إعادة الناس إلى صوابهم تدريجيًا، لنتحد جميعًا ضد عدنان ونهزمه.

كاد (سيف) أن يتكلم لولا صوت طرقات خفيفة على الباب، دخل الطارق دون إذن، وقد كانت فتاة في التاسعة عشر من عمرها، عينيها خضراوين واسعتين، ووجنتيها تتصبغ باللون الأحمر، كانت ترتدي ثوب قرمزي ضيق، وقفت أمامهم متعجرفة، نهض (ريّان) على الفور وقال بوجهه البشوش:

_ تفضلي يا حياة، أتمنى لو تتذوقي طعامي و..

قاطعته الفتاة بحدة: لا أريد تذوق طعامك ولا سماع كلامك السخيف، يمكنني فعل أي شئ بنفسي.

نكس (ريّان) رأسه يائسًا، قال:

_ تقصدين بتعاويذك.

ردت عليه بانفعال: أنا لا أستخدم تلك التعاويذ، فقط.. فقط أشياء بسيطة تعينني.

كور (ريّان) قبضته، و(جميلة وسيف) يتابعان في صمت، أردفت الفتاة:

_ جئت فقط كي أطلب منك أن تطرد ذلك الغريب وصديقته، وتتوقف عن الوقوف في وجه عدنان، فقد كان أن يقتلك.

سألها وعيناه تلمعان: هل تخافين عليَّ؟!

تلعثمت وهي تجيبه: لا تنسى أنك ابن عمتي.

ابتسم من جانب فمه، قال:

_ لكن عدنان لن يقتلني إلا بمشيئة الله يا حياة، وأظن أنكِ رأيتِ هذا بأم عينك.

همس (سيف) إلى (جميلة): يبدو أن مهمتنا ستبدأ مع هذه الفتاة.. هيا.

وقفا بجانب (ريّان) وبدأ ثلاثتهم في محاولة إعادة الفتاة إلى صوابها، قال (ريّان):

_ لا أصدق حتى الآن كيف هرعتِ وراء عدنان، لقد كنتِ كالملائكة يا حياة، كيف تُدنسين قلبك بهذا السحر؟! كيف تستبدلين ثيابكِ الفضفاضة بتلك التي ترتديها؟! كيف تكونين ضدي؟!

ظهرت أمارات الحيرة على وجهها، كانت تفرك يديها من التوتر، تابعت (جميلة) الحديث:

_ نحن نطلب العون من الله يا حياة، هو المعين، السميع، البصير، والمجيب، حتى مساعدتنا لأنفسنا تكون بإرادة من الله، لم نخلق كي نكون جبارين في الأرض، خلقنا لنعمر الأرض ونعبد الله.

طالعت الفتاة (جميلة) بضيق، كادت أن تتكلم لولا تدخل (سيف):

_ ترى القلوب ما لا تراه العقول، وترى العقول ما لا تراه القلوب، وكلاهما يرى الصدق ويميزه، اسألى عقلكِ وقلبكِ، سيقولان لكِ أننا على حق، سيخبركِ قلبكِ أن خوفكِ على ريّان نابع من خوفه هو الآخر عليكِ، فالقلوب تشعر ببعضها البعض.

تسارعت أنفاس الفتاة، طالعتهم في جمود، ثم رحلت سريعًا من أمامهم، تحرك (ريّان) ورائها، فشاهدها وهي تدلف لمنزلها بجانب منزله، وقف أمام الباب حزينًا، ربت (سيف) على كتفه، وابتسم له، لحظات وصرخت (جميلة) بجانبهما، سألها (سيف) عما حدث لها، قالت وهي تشير إلى الشارع:

_ انظروا لهذا.

نظروا تجاه ما أشارت عليه، فقد كانت تشير إلى ديناصور، لكنه بحجم دجاجة! قال (ريّان) ضاحكًا:

_ لا تخافي، إن الديناصورات في قريتنا جميعها بحجم الدجاج!

قال (سيف) متعجبًا: جميع الحيوانات والأشياء في قريتكم غريبة.

وهما يتكلمان مرَّ من أمامهم الرجل الضخم الذي أخذهم إلى (عدنان)، لكنه كان منكمشًا على نفسه، بدا هذيلاً ومتعبًا، وبعد أن مرَّ قال (ريّان):

_ هذا هو السحر!

قال (سيف) حائرًا: لقد كان أقوى من ذلك قبل قليل.

رد عليه: سُحِرت أعيننا فرأيناه ضخمًا، وبعدها صار ضعيفًا، ربما بعد قليل يعود لضخامته، هكذا أصبح حالهم، ولكل فعل من أفعالهم غاية.

تذكر (سيف) ما قالته (سارة) وهم في القصر الخفي، ردد قولها بصوت عالٍ:

_ إن أهلها ذوي ألوان متعددة!

جلسوا سويًا في الردهة يخططون لمقابلة السيد (إيهاب)، وبعد ساعة تقريبًا، رأوا ظل أمامهم فجأة، رفعوا رؤوسهم فوقعت أعينهم على (حياة)، كانت متوترة، وعينيها منتفختين، جلست معهم في هدوء، قالت بصوت متحشرج:

_ ساعدني يا ريّان.. ساعدني.

رد عليها متلهفًا: ماذا بكِ؟!

وضعت يديها على رأسها وهي تقول:

_ لا أعرف كيف أتخلص مما أنا فيه، كلما حاولت، أصابني ألم شديد في رأسي، إنني متعبة، ولا دواء سيشفيني.

انفرجت أساريره، قال بهدوء:

_ بل هناك دواء، رددي معي، «لا إلهَ إلاّ أَنْـتَ سبحانك إني كنتُ مِن الظالمين»، «لا إلهَ إلاّ أَنْـتَ سبحانك إني كنتُ مِن الظالمين».

فشلت في ترديد قوله، ظل يردد ويردد، و(سيف وجميلة) يرددان معه، حتى قالتها (حياة) بصعوبة، كانت تضع يديها على رأسها، وتغلق عينيها بألم، والكلمات تخرج من فمها متقطعة، حتى فتحت عينيها، ورددت بصوت عالٍ صادق:

_«لا إلهَ إلاّ أَنْـتَ سبحانك إني كنتُ مِن الظالمين».

* * *

(الفصل الحادي عشر)

لو أن هناك مقياس للسعادة، لكان قلب (ريّان) أكثر القلوب سعادةً بين الناس؛ فعودة (حياة) إلى صوابها أدخلت السرور إلى قلبه، وقد اجتمع الأصدقاء على نية واحدة، مساعدة أهل القرية، ذهب (سيف وريّان) إلى حيث يعيش (إيهاب) وتركا (جميلة وحياة) سويًا..

كانا يخفيان وجهيهما كي لا يتعرف عليهما أحد، وصلا إلى خيمة صغيرة، تلك التي يعيش بها (إيهاب) نظرا حولهما في حرص، ودلفا إليه سريعًا.. لم يجدا أحد بالداخل، فجلسا ينتظران عودته.

وفي نفس الوقت كانت (جميلة) تجلس بمفردها في منزل (ريّان)، كانت تفكر في ما قاله (سيف)، عليها أن ترضى، وسيعوضها الله خير، دقائق وعادت (حياة) إليها، كانت ترتدي ثوب فضفاض هذه المرة، جلست بجانب (جميلة)، وظلت تسألها عن عالمها، و(جميلة) تجيبها في هدوء.

بعد قليل من الوقت، عاد (إيهاب) إلى خيمته، تفاجأ من وجود (ريّان وسيف)، وقبل أن يُحدث ضجيجًا، قال (ريّان):

_ جئت لك في طلب، رجاءً اسمعني.

نظر له مطولاً، ثم هز رأسه وجلس قبالته يسمعه، قال (سيف):

_ سيد إيهاب أنا من عالمك ويمكنني مساعدتك كي نعود سويًا.

قال (إيهاب) حائرًا: ماذا تقصد بـ عالمي؟!

غمز (ريّان) إلى (سيف)، وقال:

_ سيدي أنت فقدت ذاكرتك إثر تعويذة سحرية، سنساعدك كي تتذكر.

أضاف (سيف): في عالمنا الهواتف الذكية، والطائرات، والأقمار الصناعية، حاول أن تتذكر ما أقوله لك.

كان السيد (إيهاب) صامتًا في ذهول، بدا كفأر صغير دلف إلى المصيدة لتوه، ظل (ريّان) يردد الأذكار والتسابيح، و(سيف) يذكره بأشياء من عالمهما، حتى وقع (إيهاب) على الأرض، كان جسده كقطعة ثلج، همس قائلاً قبل أن يفقد وعيه:

_ زهرة.. فاطمة.

حاول (سيف) مساعدته كي يستعيد وعيه، لكنه كان متجمدًا في مكانه، هتف (ريّان):

_ أظن أن عدنان شعر بنا وفعل له شيئًا ما.

_ إذًا ماذا سنفعل.

نظر (ريّان) حوله، ثم اقترب من أذني (إيهاب) وتلى آيات من القرآن الكريم، لحظات وفتح (إيهاب) عينيه، كان جسده يرتعد، دثره (سيف) بغطاء وجده بجانبه، مرت دقائق حتى قال (إيهاب):

_ أذكر كل شئ.. زهرة زوجتي، وفاطمة ابنتي.. عدنان.. والسرداب، أذكر كل شئ.

أصدر كلا من (ريّان وسيف) تنهيدة، قال (ريّان):

_ حمدًا لله على سلامتك يا سيد إيهاب.. هيا لتكمل مهمتك، وانظر إلى صديقي.. إنه من البواسل.

طالع (سيف) متلهفًا، تبادلا التحية، سأله (سيف):

_ من أين أنت يا سيد إيهاب.

أجابه: من سوريا.

_ وأنا من مِصر.

تدخل (ريّان) ممازحًا: وأنا من قرية كروما.

ضحكوا بودٍ، قال (سيف):

_ نحن أخوة بكل تأكيد، مهما كان حجم المسافات بيننا، ومهما وضعوا من حدود جغرافية، فنحن نستنشق هواء واحد، وتحيط بنا سماء واحدة، والأهم من ذلك، أننا نعبد الله وحده لا شريك له.

ران عليهم صمت قصير، قطعه (سيف) بقوله:

_ علمت أنك أنت من أطلقت على القرية اسم قرية كروما.

أومأ رأسه باسمًا: نعم.. أنا مصور فوتوغرافي، وحين جئت إلى هنا ورأيت كيف يغير أهلها ألوانهم وطباعهم بالسحر، تذكرت الـ

كروما التي كنت أستخدمها في تغيير الخلفيات، فجميعهم هنا يتظاهروا بأشياء ليست موجودة من الأساس، فقط يخيل لنا هذا من السحر.

رد عليه (ريّان): أنا سعيد جدًا بعودتك، لا أصدق أننا انتصرنا على عدنان هذه المرة، أتمنى أن نساعد جميع أهل القرية.

نهضوا بعد انتهاء الحديث بينهم، متجهين إلى منزل (ريّان).. كان أهل القرية يطالعونهم في ضيق وهم يسيرون في الشوارع، حتى دخلوا المنزل، وصُدِموا جميعًا مما رأوا.. فقد كانت (جميلة) مستلقية على الأرض، وعينيها مفتوحتين ومتسعتين، لكنها جامدة، لا تدري بمن حولها، وكانت (حياة) بجانبها تحاول إفاقتها، اقترب (سيف) منهما، صاح في توتر:

_ ماذا حدث لها؟!

أجابت (حياة) مذعورة: لقد كنا نتكلم سويًا، وفجأة تجمدت في مكانها لدقيقة، ثم وقعت على الأرض متصلبة وعينيها مفتوحتين كما ترينها.

هتف (ريّان) بحدة: عدنان.. لقد ترك عدنان السيد إيهاب واتجه إلى جميلة.. أدخلها إلى الغرفة يا سيف.. وابقي بجانبها يا حياة.

فعلا ما قاله على الفور، حاول (سيف) أن يتكلم معها لكنها ظلت تصرخ بأعلى نبرة لديها، فتركها (سيف) إلى حياة وخرج إلى الردهة.

قال (سيف) منفعلا: كيف فعل هذا؟! وما الذي أصابها؟!

رد عليه (ريّان) في هدوء:

_ لم يصيبها شئ.

_ ماذا؟!

_ كما قلت لك، إنه يحاول أن يصيبها، لكنها تجاهد، هي الآن في الاختبار الأصعب، إما أن تخضع، أو يستسلم هو.

وضع (سيف) يديه على رأسه، قال:

_ وكيف نساعدها إذًا؟!

أجابه: لا حيلة لدينا.. قلت لك أنه اختبارها.. يجب أن تبقى هنا بينما نكمل نحن عملنا.

هدر (سيف) بغضب: لن أتركها وحدها.

ربت (ريّان) على كتفه قائلاً:

_ لا تجعلها نقطة ضعفك يا صديقي، اجعلها نقطة قوة.

عقد حاجبيه متسائلاً:

_ لا أفهمك، ماذا تقصد؟!

_ أعني أنها لو نقطة ضعفٍ لك، ستبقى بجانبها متوترًا وخائفًا عليها ولن تفعل شئ لها، ولو كانت نقطة قوة، ستفعل المستحيل من أجلها.

هز رأسه في صمت، خرجت (حياة) من الغرفة، قالت:

_ لا أصدق.. لقد نامت.

طلب منها (ريّان) بأدب:

_ رجاءً ابقي معها.

قالت سريعًا: سأفعل ذلك من دون قولك، خرجت فقط كي أحضر الماء.

دلفت إلى الغرفة الأخرى وحملت كوب الماء وعادت إلى (جميلة)، و(ريّان) يتابعها باسمًا.. قال (إيهاب) بعد صمت طويل:

_ أظن أنه موعد النوم.

ابتسموا وافترشوا الأرض متعبين، لكن ثقتهم بالله روت قلوبهم بالطمأنينة.

* * *

استيقظ (سيف) على صوت (ريّان) وهو يقول له:

_ استيقظ يا سيف.. لقد جائوا.

قال (سيف) ناعسًا:

_ من هم؟!

قال (إيهاب) وقد استيقظ من قبله:

_ أهل القرية.. هناك الكثير منهم بالخارج، وهذه فرصتنا كي نتحدث معهم.

نهض (سيف) متحمسًا، قال:

_ هل استيقظت جميلة؟!

ظهرت أمارات اليأس على وجهيهما، قال (ريّان):

_ لا.. لابد أنها لن تفيق إلا بإذن الله.

ذهب (سيف) لرؤيتها قبل الخروج معهما، كانت نائمة ووجهها يتصبب عرقًا، كأنها تركض مسافات طويلة، هز رأسه آسفًا، وخرج إلى أهل القرية.

حاولوا الحديث معهم، لكن أهل القرية لم ينصتوا لهم، وبعضهم ألقى عليهم أحذيتهم في غضب، ووجهوا إليهم أقبح السباب، فعادوا ليحتموا منهم داخل الدار، دقائق وخرجوا مرة أخرى، تفرقوا وتوجه كل منهم إلى مجموعة من الناس، حاولوا وحاولوا إلى أن أصابهم الأرق، ولم ينصت لهم أحد!

جلسوا في الردهة واليأس يخيم عليهم، مؤلم أن تسعى جاهدًا لمساعدة غيرك، وهو في صفوف العدو.. بعد ساعة من خيبة الأمل، طرق أحدهم الباب، ابتسم (ريّان) قبل أن يقف، قال:

_ أشعر بقلوبهم.

ثم سار ناحية الباب وفتحه، وجد أربعة من الشباب، قلقين وحائرين، رحب بهم، وسمح لهم بالدخول، قال أحدهم:

_ لا نعرف كيف نتخلص مما نحن فيه، كلما حاولنا أصابنا ألم شديد في رؤوسنا، إننا متعبون، ولا دواء سيشفينا.

اتسعت ابتسامة (ريّان) وهو يسمع كلماتهم التي سمعها من (حياة) قبل ساعات، قال لهم:

_ بل هناك دواء، رددوا معي، «لا إلهَ إلاّ أَنْتَ سبحانك إني كنت من الظالمين».

* * *

بعد خمسة أيام تقريبًا، كان جميع أهل القرية في صف (ريّان)، عادوا أخيرًا لرشدهم وصوابهم، شئ لا يصدق، لكنه حدث، نجح (ريّان وسيف وإيهاب) في مهمتهم الأولى، يتبقى فقط استسلام (عدنان) لهم، كي تستعيد (جميلة) وعيها، بعد أن بقيت الأيام الماضية في فراشها، تفتح عينيها لساعات لكنها في عالم آخر، تصارع أفكار شيطانية تكاد أن تتحكم بها!

كان (عدنان) في قصره، وحده فقط، يزمجر وهو يذهب يمينًا ويسارًا في غضب، حتى أن الحيوانات والطيور التي كان يتحكم بها خرجت عن طوعه، شعر لوهلة أنهم هزموه، ثم ابتسم بمكرٍ وجلس على الأرض، تناول كتاب كبير من على المقعد، فتحه وبدأ يقرأ منه هامسًا، وفجأة.. في منزل (ريّان) نهضت (جميلة) من على فراشها، وسارت تجاه باب المنزل، فوقفوا جميعًا بعد أن كانوا جالسين في الردهة، نادى عليها (سيف)، لكنها لم تجبه وأكملت في سيرها، فخرجوا ورائها سريعًا في قلق، فرأوها تمسك بقوسٍ وتكاد تطلق السهم على أحد المارين، صاح (سيف):

_ جميلة.. لا تفعليها يا جميلة.

أنزلت يديها ببطء، كانت عيناها شديدة الإحمرار، همست بخفوت:

_ سيف.. أنقذني.

اقترب منها يقول: لا تخضعي له و...

قاطعه صوت صيحة ألم منها، ثم رفعت رأسها تضحك بطريقة هيستيرية، وأطلقت سهمها تجاه (سيف).

* * *

(الفصل الثاني عشر)

تحرك (سيف) من مكانه فلم يصيبه، أخفضت يديها مرة أخرى، قالت وهي تنظر حولها في خوف:

_ سيف.. سيف.

ثم ظهر (عدنان) أمامهم فجأة، صاح (ريّان):

_ دعها وشأنها يا عدنان واستسلم.

ضحك بقوة: معذرة يا ريّان، فقد علمت للتو أني كنت ألعب بطريقة خاطئة، أعترف أني فشلت في قتلك، لكني سأنجح عن طريق صديقتكم.

غمغم بكلمات غير مسموعة، فاتسعت عينيّ (جميلة) وأطلقت سهام متعددة نحوهم، كاد أحدهم أن يصيب (حياة) لولا وقوف (ريّان) أمامها، فأصاب السهم يده اليمنى، نزفت يده بشدة، و(عدنان) يضحك بصخب، اقترب أصدقائه منه، وكثير من أهل القرية، وقفوا جنبًا إلى جنب في صف واحد، صرخت (جميلة) من جديد، أمسك (سيف) بيد (إيهاب) بجانبه، وكل من في الصف أمسكوا بأيدي بعضهم البعض، ارتفعت أصواتهم وهم يتلون آيات من القرآن، بعضهم يستغفر، والبعض الآخر يُسبح، كاد (عدنان) أن يُصاب بالجنون، لفقدانه السيطرة على (جميلة)، استشاط غضبًا وألقى بإحدى تعاويذه، سقطت (جميلة) على الأرض، وضعت يديها على رأسها تتألم، ارتفع صوت (سيف) بالدعاء، وصوت (عدنان) بتعويذته، مرت دقيقة وهم في صراع، وفجأة.. وقفت (جميلة)، كانت ملامحها جامدة، رفعت قوسها تجاه أصدقائها، صمت الجميع يترقبها، وفي أقل من ثانية غيرت وضعها وأطلقت السهم على (عدنان)، اتسعت عينيه، ارتعد جسده وهو يُخرج السهم من قلبه، وسقط على الأرض.

اقترب (إيهاب) منه، قال باشمئزاز:

_ لقد مات.

التفوا حول (جميلة) كانت تبكي كطفلةٍ تائهة وجدت أهلها، قال (سيف) بفرحٍ:

_ حمدًا لله على سلامتك.

ابتسمت من بين دموعها، قالت:

_ لقد كنتَ في عقلي يا سيف.. كنت أسمع صوتك بوضوح.

قالت (حياة): أنتِ الأقوى من بيننا يا جميلة.. لقد قتلتِ عدنان!

ابتسمت لها، واتجهت إلى (ريّان) تقول له:

_ أعتذر لك يا ريّان.. لم أكن...

قاطعها: لا تعتذري، أعلم أن عدنان هو من كان يتحكم بكِ.. يجب أن نشكركِ.

نظروا جميعًا إلى السماء، فقد تلاشت السحب السوداء، وأضاءت القرية بنور الشمس الساطع، أو نور قلوب أهل القرية النقية!

ضمدت (حياة) يد (ريّان)، قال لها بعد أن انتهت:

_ لقد أوصاني خالي قبل وفاته أن أعتني بكِ ما دمت حيًا، أعتقد أن لا شئ سيجعلكِ بجانبي لآخر عمري سوى الزواج منكِ.

نظرت إلى الأرض وقد تصبغت وجنتيها باللون الأحمر، أومأت برأسها إيجابًا، واتجهت إلى (جميلة)، دار بينهما حوار قصير، عانقتها (جميلة) بعد انتهائه، كان ذلك موعد فراقهما إلى الأبد، اقترب (إيهاب وسيف) من صديقهما (ريّان)، كانت لحظات قاسية جدًا، ودموعهم تنهمر كالمطر، نظروا مرة أخرى إلى السماء، كانت صافية كقلوبهم.. تجمع أهل القرية يقومون بتوديع البواسل، قال (سيف):

_ لن أنساكم أبدًا، أتمنى أن تكونوا في حال أفضل بعد رحيلنا.. ابقوا بجانب ريّان صديقكم، وليكن طريقكم واحد.. طريق الاستقامة.

قال (ريّان) وهو يبكي:

_ كما قلت يا صديقي، مهما كان حجم المسافات بيننا، سنظل أخوة، وسيجمعنا طريق واحد.. طريق الاستقامة.

عانقه للمرة الأخيرة، التفت البواسل يلوحون لهم بأيديهم، كان جميعهم يبكي.. ساروا إلى خارج حدود القرية، التقوا بـ الشيخ (جوان)، قال مسرورًا:

_ عمل رائع يا أحبائي.. لقد كنتِ بطلة يا جميلة، حاربتِ عدنان وهزمتيه.. أنا فخور بكم.

منحوه ابتسامة شُكر، طلب الشيخ (جوان) من (إيهاب) أن يتبعه أولاً، فهو لن يسير معهما في نفس السرداب.. ودعهما واتفقوا على أن يتواصلوا في عالمهم.

غاب الشيخ (جوان) لدقائق ثم عاد وحيدًا، واصطحبهما إلى السرداب، وقفا (سيف وجميلة) أمام السرداب، التفتا إلى القرية يلقيان عليها النظرة الاخيرة، قالا سويًا بابتسامة باكية:

_ وداعًا قرية كروما.

* * *

(السرداب الثالث)
(جزيرة سابل)

(الفصل الثالث عشر)

كانت رحلتهما داخل السرداب قصيرة جدًا؛ فبعد ثلاث دقائق كانوا في القصر! وكما حدث في أول مرة؛ اختفت اللوحة وظهر الحائط بدلاً منها، نظرا إلى (سارة) التي كانت تجلس على مقعدٍ وتطالع كتاب تمسكه بكلتا يديها، هتف (سيف) ممازحًا:

_ إيه مش واحشينك المرادي ولا إيه؟!

لم ترد عليه وظلت تنظر إلى الكتاب، فقالت (جميلة):

_ أصل إحنا شاطرين أوي يا سيف ورجعنا بسرعة فـ أكيد مش واحشينها.

لزمت الصمت، فقال (سيف) قلقًا:

_ هو إحنا عملنا حاجة غلط ولا إيه؟!

وقفت (سارة) أمامهما، قالت:

_ ألم تكونا حزينين على فراق أهل القرية؟!

أجابتها (جميلة): نعمل إيه بس، إنتي كمان بتوحشينا وأول ما بنشوفك بننسى نفسنا.

قهقت (سارة) ناولتهما الكتاب قائلة:

_ انظرا إلى صورة إيهاب.. لقد ظهرت صورته أمام صورة القرية في كتاب البواسل.

نظرا إلى صورته، قال (سيف):

_ إنتي روحتيله هناك وبتكلمينا هنا إزاي بقى؟ آه صح إنتي عفريتة تعملي أي حاجة، وبعدين فين صورتنا إحنا بقى؟!

ابتسمت في خبثٍ قائلة:

_ يجب أن تنهيا مهمتكما الأخيرة أولاً.

اتجهت إلى اللوحة الثالثة، كانت لوحة لطفلٍ صغير، في السابعة من عمره تقريبًا، تحركت عينيه و(سارة) تقول:

_ إنه تميم.

تسائل (سيف) مدهوشًا:

_ طفل؟! وده إيه الظلم اللي وقع عليه بقى؟!

أجابته: يبدو أنك تسخر من الأمر.. إن الأطفال هم أكثر من يقع عليهم الظلم.

أخفضت (جميلة) رأسها في حزن، لاحظ (سيف) هذا، فقال:

_ وطبعًا لازم ندخل السرداب بسرعة عشان نلحقه.

أومأت (سارة) برأسها، قالت:

_ لا يوجد شئ مفقود على وجه الأرض، لكنك حقًا تفقده، ويجب أن تعثر عليه!

قالا معًا: إيه؟! معناه إيه الكلام ده.

أجابتهما وهي تضغط على اللوحة:

_ ستعرفان كل شئ حين تعثرا عليه.

ظهر الظلام مجددًا، دلف (سيف وجميلة) إلى السرادب، وصوت (سارة) يكاد يصم آذانهما وهي تقول:

_ إلى جزيرة سابل.

* * *

مرت ثوانٍ قليلة عليهما في الظلام، ثم أضاءت فوهة كبيرة أمامهما في الهواء، كأنها نافذة إلى عالم آخر، تعجبا كثيرًا، حتى خرج الشيخ (جوان) من الفوهة، مَثُلَ أمامهما، قال:

_ هل تفاجئتما هذه المرة؟!

قال (سيف): إنت بتفاجئنا دايمًا يا شيخ جوان.

ضَحِكَ قائلاً: حاولت ألا أفعل ذلك لكن يبدو أني فشلت.

قالت له (جميلة): بس هو ليه السرداب ده مختلف أوي كده؟! إحنا ما مشيناش خطوة واحدة!

_ سرداب جزيرة سابل ينقل مباشرة إلى البحر.

تسائل (سيف): البحر؟! طب ومهمتنا إيه بقى.

هز رأسه في وقار، أجابه:

_ نعم البحر.. ومهمتكما هي العثور على الوصية المفقودة.

رد عليه (سيف) مستغربًا:

_ ممكن توضحلنا أكتر.

_ حسنًا.. جزيرة سابل يعيش عليها خمسة أفراد، لكنها تصلح للعيش بكل تأكيد، وقبل أعوام كان يعيش عليها العشرات، وعند تقسيم أرض الجزيرة بينهم بالعدل، نشبت مشاجرة بينهم، انتهت بموت كبيرهم؛ السيد طلال، فأصابتهم لعنة حولتهم جميعًا إلى أحصنة وحشية، فيما عدا الخمسة أفراد.

عقدت (جميلة) حاجبيها، قالت باللغة العربية:

_ مازلت لا أفهم.. ما هي مهمتنا؟!

تنهد بنفاد صبر، أجابها:

_ الخمسة أفراد هم (تميم، زين، فريدة، حامد، رحيم)، وجميعهم أحفاد السيد طلال، وهم ابناء عمومة، وقد ترك لهم الوصية كي يعرفون من أحق بميراثه، لكن الوصية مفقودة، وهذه مشكلة كبيرة بالطبع، لكن المشكلة الكبرى هي أن سكان الجزيرة المتحولون يتعقدون أنهم لن يعودوا إلى طبيعتهم إلا بتقديم تميم قربان للجزيرة، والحقيقة أن سر تحولهم في الوصية.. فحاولوا قتله، لذا فرَّ الصغير إلى السرداب.

تسائل (سيف): ولِمَ لم ينقذه أحد من أبناء أعمامه؟!

أخفض الشيخ (جوان) رأسه، لوى شفتيه قائلاً:

_ لسوء الحظ.. اعتقد أبناء أعمامه أن الوصية لن تظهر إلا بسيلان دماء تميم على أرض الجزيرة، فكما أُخفيت الوصية بسبب الدم، ستظهر أيضًا من أجل دمائه، وهذا الاعتقاد خاطئ، لكنهم صدقوه.

قالت (جميلة) في حماس:

_ إذًا يجب أن نعثر على الوصية، كي يعم السلام في جزيرة سابل.

أومأ رأسه قائلاً:

_ بلى.. هيا إلى داخل الفوهة.

ألقوا بأنفسهم داخل الفوهة، فسقطا على الفور داخل قارب صغير في البحر، ولدهشتهما لم يجدا الشيخ (جوان)! أبحرا في القارب متجهين إلى جزيرة سابل، قال (سيف) قبل وصولهما إلى الشاطئ بدقيقة:

_ ربما هذا القارب مثل الساعة الرملية؛ فقد مرت نصف ساعة تقريبًا!

وصلا إلى الشاطئ، وبمجرد أن وضعا أقدامهما فوق الرمال اختفى القارب! قالت (جميلة):

_ ليت الشيخ جوان يخبرنا بكل شئ من دون مفاجآت.

قال (سيف): إنه يتنفس المفاجآت.

سارا على الرمال، كانت الجزيرة على شكل هلال، بدا هذا واضحًا أثناء سيرهما، لم يجدا أحد على الجزيرة، توقفا عن السير وجلسا أسفل شجرة عملاقة، وبعد جلوسهما بثوانٍ صاح (سيف):

_ هناك شئ تحت الرمال.

ظل يحفر في الرمال بيديه حتى عثر على شئ، كانت زجاجة بداخلها ورقة، قال (سيف) متعجبًا بعد أن أخرجها:

_ هل هذه هي الوصية؟!

أجابته بفضول: افتحها لنرى.

نزع فلينة الزجاجة وأخرج الورقة، كان مكتوب بها بخط اليد باللغة العربية، قرأ (سيف) بصوت عالٍ:

_ «الموز للقردة، والشجرة للموز».

* * *

(الفصل الرابع عشر)

لزم (سيف) الصمت بعد أن قرأ تلك العبارة الغريبة، قالت (جميلة) في حيرة:

_ ربما لا يكون لهذه العبارة معنى، وربما يكون لها دلالة كبرى، ألن يظهر الشيخ جوان ويوضح لنا؟

قال (سيف) وهو يفكر بعمق:

_ لا أعتقد أنه سيظهر؛ فقد بدأت مهمتنا الآن، سأحتفظ بتلك الورقة حتى نفهم معناها.

واصلا سيرهما متعبين، أمطرت السماء بغزارة، لم يجدا سوى شجرتين متلاصقتين يحتميان تحتها من المطر، كانت أوراق الشجرة كبيرة، يتجمع ماء المطر فوقها ثم ينحدر إلى الأرض محدثًا إيقاعًا موسيقيًا.. لحظة واحدة.. هناك صوت آخر؛ صوت أنفاس شخص ما، همس (سيف) إلى (جميلة) يطلب منها أن تتبعه، تبعته إلى أن وصلا لمكان بالقرب منهما، انحنى (سيف) على الأرض فجأة فصرخ الطفل، قال (سيف):

_ اهدأ يا تميم ولا تخف.. نحن أصدقائك من البواسل.

كان الصغير يرتعد، قال:

_ سعيد لرؤيتكما.. كنت أختبئ من حامد، لا أصدق أنه يريد ذبحي.

نظرا إلى بعضهما البعض في عطف، رق قلب (جميلة) إليه، فعانقته بحنو قائلة:

_ لن يؤذيك أحد يا صغيري، نحن بجانبك، ولأجلك.

ابتسم الطفل بحبٍ، توقف المطر فنهضوا يكملون سيرهم، تسائل (سيف):

_ أين أبناء أعمامك يا تميم؟!

أجابه بضيق: زين وحامد ورحيم يصطادون، وفريدة تطهو الأسماك التي يخرجونها من البحر.

فكر (سيف) قليلاً ثم قال:

_ هل توجد شجرة موزٍ هنا يا تميم؟!

صمت (تميم) يتذكر، ثم لوى شفتيه قائلاً:

_ لا أعرف ما هو الموز!

صُدِمَ (سيف) من إجابته، وظل يسأل نفسه؛ ما دلالة تلك العبارة؟!

اقتربوا من أبناء أعمام (تميم)، ارتعد الصغير ووقف خلفهما يرجوهما قائلاً:

_ سيقتلوني.. رجاءً أبعداني عنهم.

قالت (جميلة): لن يصيبك مكروه، فقط ثِق بي.

وقبل أن يقتربوا منهم ظهر أمامهم حصان وحشي، وباللعجب؛ تكلم الحصان كإنسان، ربما لأنه إنسان تحول إلى حصان، هدر الحصان في غضب:

_ ها أنت هنا أيها المشاغب.

صرخ (تميم)، سمعه أبناء أعمامه فأتوا إليه، أخفى (سيف) الصغير خلفه، قال بثبات:

_ لا أحد يقترب منه.

صاح أحدهم وقد عرف (سيف) فيما بعد أنه (حامد):

_ ومن تكون؟! وكيف أتيت إلى جزيرتا؟!

انفرجت أسارير (سيف)، قال:

_ أنا سيف، وهذه صديقتي جميلة، جئنا من أجل الوصية.

ضرب الحصان الأرض وأصدر صهيله، قال بلغة البشر:

_ الوصية لنا نحن.

ضربه أحد أبناء أعمام (تميم) قائلاً:

_ الوصية لنا نحن، وتميم لكم.

بكي الصغير وهو يقول:

_ وما ذنبي أنا؟!

رد (حامد) في برود:

_ ذنبك أنك أصغرنا، ولن نترك لك ميراث جدي.

تدخلت (جميلة): لكن جدكم ترك الوصية له.

ردت (فريدة): وأين هي الوصية؟! هل وجدتموها؟!

غمغم (سيف) قائلاً: الموز للقردة، والشجرة للموز.

صاح الحصان: ماذا تقول؟! لقد سمعت السيد طلال يردد هذه العبارة ذات مرة في حياته!

اقترب (حامد) من (سيف)، أمسكه من تلابيبه، وقال غاضبًا:

_ كيف عرفت بتلك العبارة؟!

أبعد (سيف) يده مشمئزًا، قال في مكرٍ:

_ لقد عرفت للتو من هم القردة.

ثم تحرك ناحية الأسماك المطهوة وأخذ ثلاثة منها، قال:

_ فلنفترض أن تلك الأسماك هي ميراثكم، سيأخذ تميم فقط ما يحتاجه، سيأخذ واحدة، ويترك لكم البقية.

نظروا له بعدم فهم، ابتسم (سيف) من جانب فمه، أخذ الثلاثة أسماك ونادى على (جميلة وتميم) وأخذهم معه، وتركوهم يشتعلون من الغضب.

جلسوا على الرمال قبالتهم، أطعمت (جميلة) الصغير، كان جائعًا جدًا، وبعد أن أنهى الطعام كله، طلب منه (سيف) أن يعرفه بهوية أبناء أعمامه، فأشار إليهم واحدًا تلو الآخر قائلاً:

_ هذا الضخم الذي تحدث معك يُدعى حامد، وهذه فريدة زوجته، وهذا الفتى الأسمر يُدعى رحيم، وهذا الذي يرتدي قميصًا دون أكمام يُدعى زين.

هز رأسه يفكر، تثائب الطفل، ووضع رأسه فوق قدمي (جميلة) وراح في سبات عميق، همست كي لا توقظه:

_ يبدو أنك قد علمت شيئًا بأمر الرسالة.

رد عليها بنفس الصوت الهامس:

_ لست متأكدًا بعد.

قاطعهما مجئ (رحيم)، قال متلعثمًا:

_ يقول حامد أنه فهم ما تعنيه، ويريد أن تسير الأمور بسلام، ويقترح أن نقوم بصنع جرح صغير في جسد تميم بدلاً من قتله، وبمجرد أن تسيل دمائه على أرض الجزيرة ستظهر الوصية.

نهض (سيف) منفعلا، ثم استعاد هدوئه سريعًا ورد عليه في برود:

_ أخبر حامد أن اقتراحه سئ، وقل له أن يخبرني بما يريده بنفسه في المرة القادمة.

تفصد جبين (رحيم) عرقًا ورحل من أمامه، قال لـ (حامد) ما سمعه، فاحتقن وجهه وغضب بشدة، واجتمع معهم يخبرهم بخطته الجديدة.

حمل (سيف) (تميم) ودلف إلى إحدى الخيام، وضعه على الأرض ونام بجانبه، قالت (جميلة):

_ وأين سأنام أنا؟!

قال (سيف): لقد حل الليل، نامي هنا في الخيمة معنا.

تعصبت: لا يمكن.. سأنام أنا بجانب تميم وأنت في الخارج.

_ أنتِ قاسية جدًا.

رمش بعينيه ببراءة، قالت:

_ لا تحاول.. ستنام في الخارج وأنا هنا.

خضع لها وخرج من الخيمة، لجأ إلى خيمة أخرى ونام بداخلها، دقائق وكانوا جميعًا نيام.

تسلل (رحيم) إلى خيمة (تميم وجميلة)، لم يشعر أحد به وهو يحمل (تميم) ويأخذه معه إلى الخارج.. وصل عند (حامد)، ألقى (تميم)

على الأرض، فالتفوا حوله و(حامد) يبتسم بمكرٍ، تناول خنجر حاد، وأحدث جرحًا في ذراع (تميم) دون شفقة، استيقظ الصغير وهو يصرخ متألمًا، تناهى صوت بكائه إلى مسامع (سيف وجميلة) فخرجا إليه سريعًا، وشاهدا ما أذهلهما وصدمهما بشدة!

* * *

(الفصل الخامس عشر)

سالت دماء (تميم) على أرض الجزيرة، وكان هناك جمعٌ من الأحصنة الوحشية يطالعون (تميم) في ترقب، وفجأة تحولت الأحصنة! كان مشهد مهيب؛ فقد بدت الأحصنة نصفُ إنسان، ونصف حصان وحشي، اضطربت الأجواء واشتد الريح، صاح أحد الأحصنة المتحولة:

_ اقتله.. اقتله كي نعود لطبيعتنا.

ارتعشت يد (حامد)، قرب الخنجر من عنق (تميم) وهو يبكي متألمًا، ركض (سيف) إليه، كاد (حامد) أن يشق عنق الصغير،

لولا يدٌ منعته؛ كانت يد (زين) الذي سلب الخنجر منه وعانق (تميم) يهمس له في ارتباك:

_ لا تبكي يا صغيري.. ستكون بخير.

وصلا (سيف وجميلة) إليهم، وضعت (جميلة) طرف ثوبها على جُرح (تميم) لوقف النزيف، بينما هدر (سيف) غاضبًا:

_ ألا توجد رحمة في قلوبكم؟ كيف تفعلوا هذا بطفل صغير لا يقوى حتى على إيذاء نملة؟!

كور (حامد) قبضته، قال متعصبًا:

_ لابد من قتله كي نحيا نحن.

ثم التفت إلى (زين) قائلاً:

_ وأنت أيها الضعيف، كيف تجرؤ على أخذ الخنجر مني؟! هل أصابتك لوثة؟!

ازدرد (زين) ريقه بصعوبة، حاول أن يكون ثابتًا، قال كعصفور خرج من قفصه للتو:

_ لم يصيبني شئ يا حامد، بل عدت إلى صوابي، إن أصاب تميم مكروه أنا من سيقتلك يا حامد.

قالها وغادر بسرعة، تبعه (سيف) و(جميلة)، وهي تحمل (تميم)، توجهوا إلى الخيمة، وضعوه بداخلها، وضمد (زين) جرحه، بعد دقائق من الصمت قال (سيف) موجهًا حديثه إلى (زين):

_ هل أنت خائف من حامد؟!

صمت قليلاً ثم قال:

_ كنت أخاف منه، أما الآن.. فلا شئ سيخيفني.. سأحضر بعض الفاكهة إلى تميم وأعود قريبًا، رجاءً اعتني به.

قالت (جميلة) بعد أن تركهم:

_ لا يجب أن نثق به يا سيف؛ من الممكن أن تكون خدعة.

رفع (سيف) كتفيه في لامبالاة، قال:

_ لا أعتقد.. إنه صادق.

هزت رأسها غير مقتنعة، قال (تميم):

_ زين عطوف وكريم جدًا، صدقيه يا جميلة.

نظرت له (جميلة) متفاجئة، وابتسمت له..

عاد (زين) يحمل الفاكهة لاهثًا، قال:

_ يجب أن نأخذ حذرنا، بعد أن تحولت الأحصنة إلى نصف إنسان أصبحوا غاضبين جدًا، وكذلك حامد ورحيم، سيفعلون أي شئ من أجل الوصية.

كان (سيف) شاردًا، تركهم وخرج من الخيمة دون تعليق، سار بالقرب من الخيمة وهو مستغرق في التفكير، ورفع قدمه فجأة بعد أن ضغط على شئ، انحنى إلى الأرض وسحبه، كانت زجاجة ثانية، وبداخلها رسالة، قرأها سرًا:

_ «الأكبر سنًا يلقى الاحترام، والأصغر سنًا يلقى الحب والاهتمام».

ضيق عينيه مستغربًا، ثم طوى الورقة يبتسم في مكرٍ..

سرق انتباههم أصوات مرتفعة، خرجت (جميلة) من الخيمة وتبعها (زين) مذعورين، قال (زين):

_ إنهم يتشاجرون.

أومأ (سيف) رأسه قائلاً:

_ دعهم وشأنهم.

قال متوترًا: أخشى أن يُقتل أحدهم.

_ لا تقلق، إنه مجرد نِقاش.

حملق (زين) بوجهه، قال:

_ كيف عرفت؟!

لزم الصمت، عقدت (جميلة) حاجبيها قائلة:

_ أخبرنا يا سيف.

ابتسم (سيف) من جانب فمه، غير دفة الحديث قائلا:

_ استغربت في البداية أن الأحصنة تحولت بمجرد سيلان دماء تميم على أرض الجزيرة، بالرغم من أني متأكد أن هذه خرافة، فكيف تحولوا؟! دعني أجيب، لأنها ليست خرافة، بل حقيقة، لكن هناك خطأ ما.

تسائل (زين): أي خطأ؟!

_ سنعرف كل شئ، فقط اصبر.

أنهى عبارته وهدأت الأصوات من بعيد، لابد أنه كان نقاشًا بالطبع!

* * *

أشرقت الشمس معلنة بدء نهار جديد، فتح (سيف) عينيه متحمسًا، ألقى نظرة على (تميم وزين) بعد أن ناموا في خيمة واحدة، كانا مستغرقين في نومهما، خرج وسار بعيدًا إلى الشاطئ، فوجد (جميلة) تجلس وتضع يديها على وجنتيها، باغتها بقوله:

_ صباح الخير.

تفاجأت أولاً، ثم حيّته في فتور، قال مداعبًا:

_ هل أنتِ جميلة صديقتي أم حورية البحر؟!

زفرت بحنق، وقالت:

_ لا تمزح معي يا سيف.. أنا غاضبة منك جدًا.

_ لماذا؟!

_ لأنك تعلم أشياء وتخفيها عليّ.

طالع البحر أمامه قائلاً:

_ ستعرفين كل شئ في الوقت المناسب.

حدقت إليه في غضب، ثم نهضت وتركته وحيدًا، مرت دقائق قليلة، ووقعت عينيه على شئ يلمع تحت ضوء الشمس، اقترب من الماء فوجد زجاجة أخرى، نزع الفلينة وأخرج الرسالة الجديدة، قرأها سرًا وهو يبتسم:

_ «قطرة مياهٍ عذبة في بحرٍ مالح لن تغير طعمه، لكنها حتمًا ستتغير».

طوى الورقة سريعًا، وعاد أدراجه إلى الخيمة.. كان (زين) قد استيقظ لتوه، اطمئن على (تميم) وكان لا يزال نائمًا، دار حوار قصير بين (جميلة وزين) لكن (سيف) لم يسمعه، فقد كان ينظر إلى الأعلى ويضع يديه فوق جبينه كي يرى بوضوح، سألته (جميلة) عمّا ينظر إليه، لكنه لم ينتبه إليها، أعادت سؤالها بصوت مرتفع، فقال:

_ سأصعد فوق تلك الشجرة.

قال (زين): لكنها عالية جدًا وليس بها ثمار!

لم ينصت لأحد وتسلق الشجرة، كان عمل شاق جدًا عليه، سقط عدة مرات حتى تمكن من الصعود إلى قمة الشجرة، وعندها مد يده وسحب الزجاجة، أخرج الرسالة وكان مكتوب بها:

_ «اسعى كي تكون غاليًا، ولا تتسلق كي تكون عاليًا».

طوى الورقة وهبط من على الشجرة، وعند نزوله وانضمامه إليهما، خرج (تميم) من الخيمة يفرك عينيه، وقبل أن يكلمه أحد، مَثُلَ (رحيم) أمامهم، قال في اشمئزاز:

_ حامد يدعوكم إلى لقائه.

نظروا إلى بعضهم البعض في حيرة، قال (سيف):

_ سنأتي بعد أن يتناول تميم فطوره.

غادر بعد تلك العبارة، لم يعلق أحد على ما قاله (سيف) فقد بدا لهم غامضًا، تناول (تميم) فطوره وتحركوا إلى (حامد).. وفي طريقهم انحنى (سيف) إلى العُشب دون أن يراه أحد، أمسك الزجاجة وأخرج الرسالة يقرأها سريعًا:

_ «كُتِبَ عليك أن تصل إلى النهاية لا محالة، لكن حين تصل إليها، اجعلها بداية جديدة لغيرك».

طوى الورقة وتبعهم في هدوء بعد أن نادى عليه (زين).. وصلوا إلى (حامد) وقد كان جميع سكان الجزيرة من بشر _وأحصنة نصف متحولة_ هناك، قال (سيف) بمجرد وصولهم:

_ كنت آتيًا من دون استدعائك يا حامد.

رفع (حامد) رأسه متعجرفًا، تابع (سيف) حديثه:

_ كي أخبرك أني عثرت على الوصية.

* * *

(الفصل السادس عشر)

اشرأبّت أعناق الجميع يطالعونه في ترقب، هتف (حامد):

_ اعطيها لي وإلا قتلتك.

صاحت الأحصنة النصف متحولة، وارتفع صوت (رحيم) قائلاً:

_ أنا من سيأخذها يا حامد.

وبدأ الشجار بين الجميع، صرخ (سيف) كي يسكتهم، قال في هدوء:

_ الوصية لكم جميعًا فقط اسمعوني.. تعلمون أن سكان الجزيرة المتحولون لن يعودوا إلى طبيعتهم إلا بسيلان دماء تميم، لكن هذا خطأ كبير، كي يعودون إلى طبيعتهم وكي يُعثَر على الوصية يجب أن تسيل دماؤكم جميعًا على أرض الجزيرة.

ألقى الصمت عبائته عليهم، وكأن على رؤوسهم الطير، قال أحد الأحصنة المتحولة:

_ وهل نقتل أنفسنا أم إحداث جرح صغير سيفي بالغرض؟!

قال (سيف): لا قتل، لكن يجب أن تتشبع الأرض بدمائكم جميعًا.

عادوا لصمتهم، كانت (جميلة) تطالع (سيف) بنظرات مرتابة، وفجأة أُنير عقلها، وفهمت ما يرمي إليه، حيث قال:

_ أرأيتم؟! كل واحد منكم أخذ وقتًا كي يفكر، خوفًا من إضرار نفسه، ولو بإحداث جرح صغير.. لكنكم كنتم ستقتلون هذا الصغير بدم بارد، انظروا لقلوبكم، كم هي قاسية!

طالعوا بعضهم البعض، احتقن وجهيّ (حامد ورحيم)، اقتربا من (سيف) وصرخا في وجهه يطلبان منه الوصية، دفعهما (سيف) بعيدًا عنه، اشتد احمرار عينيه، صاح وقد تغيرت نبرة صوته:

_ هل هذا ما علمتكم إياه؟! هل أنتم أحفادي؟!

تراجع الجميع إلى الخلف مذعورين، همست (جميلة) مدهوشة:

_ سيد طلال!

تكلم (سيف) أو السيد (طلال) بصوت عالٍ:

_ هيا.. إلى الشاطئ.

وقفوا في أماكنهم كالحجارة، صاح فيهم مجددًا، فأسرعوا إلى الشاطئ، وعند وصولهم قال:

_ تبحثون عن الوصية؟ الوصية مع حفيدي.

نظروا إلى (تميم) غاضبين، فاختبأ خلف (جميلة)، قال (زين) فجأة:

_ نعم.. إن الوصية معي من البداية.

اتسعت أعينهم غير مصدقين، رددوا، زين؟! لكن (حامد) اقترب منه قائلاً:

_ هل كانت معك منذ البداية؟! ولِمَ لم تخبرنا؟ وماذا كُتِبَ بها؟!

أجاب (زين) في حيرة: نعم كانت معي، وكان مكتوب بها «انتظر زيارتي».

_ ماذا؟!

تسائل الجميع في دهشة، قال (طلال):

_ وها أنا قد أتيت، كنتم ستقتلون بعضكم البعض من أجل الأرض، فأصابتكم لعنة حولتكم إلى حيوانات، وكاد حامد أن يقتل تميم ابن عمه من أجل الوصية، كي يكون كل شئ ملكٌ له، لا يعرف أن رحيم يُدبر له مكيدة كي يقتله بعد العثور على الوصية، تريدون الوصية؟! حسنًا.. يجب أن تنزلوا إلى البحر أولاً.

ظهرت أمارات القلق على وجوههم، تابع حديثه:

_ كي تتطهر قلوبكم.. انزلوا إلى البحر.

سمع همهمات اعتراض، وبعض آراء الموافقة، نظر إلى (تميم) قائلاً:

_ انزل يا تميم.

ارتعد الصغير، قال:

_ لكني لا أجيد السباحة!

رد عليه: لن تغرق.

أومأ رأسه واتجه إلى البحر، ألقى بجسده فى المياه، ظل يصرخ عاليًا، ويضرب المياه بذراعيه محاولاً النجاة، لكنه كان يغرق بالفعل، لم يتردد (زين) للحظة، وألقى بجسده فى المياه متجهًا إلى (تميم) وفعل ذلك الكثير من الأحصنة النصف متحولة، حمل (زين) (تميم) وأخرجه من البحر فاقدًا لوعيه، ولدهشتهم، خرجت

الأحصنة من البحر بشر، لم يصدق أحد ما حدث، فقد عاد السكان إلى طبيعتهم واستعاد (تميم) وعيه، قال (طلال) بحدة:

_ تعالوا معي.

ساروا ورائه وتركوا (رحيم، وحامد وزوجته) وعدد من الأحصنة النصف متحولة، وبعد أن ابتعدوا صرخ أبناء أعمام (تميم) وألقوا بأنفسهم في المياه فجأة، كذلك فعلت الأحصنة، فعادوا إلى الشاطئ، ولم يجدوا أحد هناك؛ فقد غرقوا جميعًا.. قال (زين):

_ يا إلهي.. لقد غرقوا!

قال (سيف) وقد عادت نبرة صوته:

_ كانت أمامهم فرصة ولم يستغلوها.. حسنًا.. هذا مصيرهم.

ثم التفت إلى الناجين قائلاً بحماس:

_ الوصية معي، وقد كتب فيها السيد طلال: «أعزائي الباقين على العهد، يسعدني عودتكم إلى الطريق المستقيم.. الوصية تُكتب للأبناء، وأنتم جميعًا أبنائي، وصيتي لكم أن تكونوا على قلب رجل واحد.. لا أحد يمتلك شئ على تلك الجزيرة، فلا تطمعوا.. لا تؤذي غيرك كي لا تؤذى.. وإن أُخذ منك حق، ستعيده لك الأيام».

هناك شئ غريب في تلك الوصية، لم يشعر بذلك أحد سوى (سيف وجميلة)..!

أنهى (سيف) قراءة الوصية، هز (زين) رأسه قائلاً:

_ كنت انتظر زيارة جدي كما أوصاني.. لولاك ما استطعنا التخلص منهم، وقد كاد حامد أن يقتل تميم، ورحيم يريد قتل الاثنين، لا أعرف كيف تغيروا لكن كما قلت.. هذا مصيرهم.

شكره (سيف) وأخرج الرسائل من جيبه قائلاً:

_ هذه الرسائل لك.. تدبر ما بها كي لا يتكرر ما حدث.

أخذها منه وقرأ ما بها متأملاً، عانقت (جميلة) الطفل الصغير تودعه، همس (تميم) في أذنيها:

_ لا تنظري إلى سيف كثيرًا، فقد لاحظ الجميع هذا.

حملقت (جميلة) بوجهه غير مصدقة، ثم أومأت رأسها وهي تبتسم:

_ حسنًا يا تميم.. لن أنظر إليه كثيرًا.

قاما بتوديعهم وساروا إلى الشاطئ، لا يعرفان كيف سيجدا الشيخ (جوان)، قالت (جميلة) وهي تطالع البحر أمامهما:

_ أخبرني بما حدث يا سيف.. كيف وجدت تلك الرسائل؟ وكيف تكلم السيد طلال من داخلك؟! و..

قاطعها: لقد كان أنا.

_ ماذا؟! أنت من فعلت هذا؟! ولِمَ تظاهرت بأنك السيد طلال؟!

_ منذ أن وصلت إلى الجزيرة وأنا أسمع صوتًا يهمس في أذنيّ، كان يخبرني بمكان الرسائل، ويخبرني بما يفكر فيه أحفاد السيد طلال، وأيضًا هو من ألهمني بفعل ما فعلته، وقد حدث وغرق أشدهم شرًا وقسوة.

ران عليهما صمت قصير، قطعته بقولها:

_ بالتأكيد هذا الصوت هو صوت السيد طلال.

التفت (سيف) إليها، وقف في مواجهتها، قال وهو يبتسم:

_ لقد كان الشيخ جوان.

_ الشيخ جوان؟!

_ نعم.. كان صوته.. أوه.. ها هو القارب.

نظرا ألى البحر فوجدا القارب الذى أحضرهما إلى الجزيرة! صعدا على متنه وأبحرا في هدوء، حتى توقف القارب فجأة، وظهرت الفوهة، وخرج منها الشيخ (جوان)، قال بعد أن جلس على القارب:

_ أتممتما مهمتكما بنجاح، لا أصدق.. لقد كان عملاً رائعًا.

قالت (جميلة) في مزاح: أنا حزينة يا شيخ جوان لأنك كنت تتحدث مع سيف ولم تتحدث معي.

ضحك في هدوء، قال:

_ سيف وحده من كان يستطيع فعل هذا.

تنحنح (سيف)، وقال:

_ شيخ جوان، هناك شئ غريب في الوصية.. أشعر أنها لي!

أخفض الشيخ رأسه، قال بعد صمت قليل:

_ إنها لك.. لقد كانت الثلاث مهام لكما، بداخل كلا منكما شئ حزين، استحق أن يعبر السرادب ويؤدي المهمة، ويعود فرحًا مطمئنًا، كان قلبك حزين يا سيف، وكان قلبكِ متألمًا يا جميلة، والآن بعد أن صرتما من البواسل، ضُمِدَتْ جروح قلبيكما.

هزا رأسيهما بابتسامة هادئة، قال (سيف):

_ شئ أخير أرغب في معرفته.. لِمَ كنا ننتظر نصف ساعة داخل الساعة الرملية بعد عبور السرادب؟!

_ لأن العالم الذي تذهبان إليه يكون متجمدًا تجميدًا زمنيًا، ويحتاج إلى نصف ساعة كي يعود كما كان، وتقتحمان أنتما هذا العالم.

نهض الثلاثة ببطء، اختل توازن القارب، اغرورقت عينيّ (سيف)، عانق الشيخ (جوان)، قال:

_ لن أنسى أبدًا مفاجآتك لنا.. لن أنسى رحلتي الأخيرة هنا، كنت خير معين لي.. أشكرك.

رد عليه متأثرًا: في رعاية الله يا بُني.

صافح (جميلة)، قال:

_ نسيت أن أخبركِ، أنتِ أول فتاة تعبر سراديب القصر الخفي وتذهب إلى عوالم أخرى.

ابتسمت: لن أنساك أبدًا يا شيخ جوان.

اقتربا من الفوهة، قال الشيخ (جوان) من بين دموعه:

_ وداعًا يا أحبائي.

التفتا إلى الجزيرة، قالا قبل أن يعبرا الفوهة:

_ وداعًا جزيرة سابل.

* * *

(الفصل الأخير)

سقطا على الفور في القصر، كان الحائط فارغ، لا توجد عليه أي لوحات، التفتا إلى (سارة) التي كانت تقف في انتظارهما، قالت:

_ مرحبًا بكما.

تنفست (جميلة) بعمق، قالت:

_ مرحبًا يا سارة.. هتوحشينا.

أضاف (سيف): شكرًا يا سارة.. لقد ساعدتِنا كثيرًا.

غضنت (جميلة) جبينها في حيرة، قال (سيف):

_ فاكرة يا جميلة لما دروسيرا حاولت تقتلك بالخنجر أول مرة.. سارة هي اللي حركت إيديها فـ الخنجر جرح دراعك بدل ما كانت هتصيب قلبك.. وهي كمان اللي بعدت عني الحاجات اللي وقعت عليا وكانت هتموتني.

حدقت (جميلة) إليهما قائلة:

_ بجد؟! شكرًا يا سارة.

أومأت (سارة) رأسها باسمَة، تناولت كتاب من على الطاولة، قالت:

_ لقد صُمم هذا الكتاب لأجلكما.

أخذا الكتاب، طالعا صفحاته، كانت صورة (سيف وجميلة) في أولى صفحاته، وفي باقي صفحاته رسمت أجزاء من العوالم الأخرى التي ذهبا إليها، قالت (جميلة):

_ يعني الكتاب ده لينا إحنا بس؟!

قال (سيف): شوفي وإحنا اللي كنا زعلانين عشان ملناش صورة واحدة في كتاب البواسل.

قالت (سارة): سيبقى الكتاب في القصر لنروي حكاياته للبواسل من بعدكما.. وبمجرد خروجكما من القصر.. سيختفى من هنا.

ران عليهما صمت قصير، طالعا القصر في شجن وقد غمره الضوء! فُتِحَ باب القصر، خرجا إلى الحديقة و.. خرجا من البوابة، التفتا إلى القصر، كانت (سارة) تقف في الحديقة، وتشير بيدها إليهما مودعة، أشارا إليها، واختفى القصر كأنه سراب!

وبعد أن اختفى القصر، ظهر مكانه هاتف (جميلة)، صاحت:

_ الفون بتاعي.. يااه ده أنا كنت نسيته.

انحنى (سيف) إلى الأرض فوجد هاتفه هو الآخر والـ(كاميرا) خاصته، احتضن الـ(كاميرا) قائلاً:

_ وحشتيني.

_ الحمد لله سارة طلعت أمينة.. غالبًا خبتهم عننا عشان مانصورش حاجة.

_ كده كده مكنش هيتصور، نسيتي إن مفيش غيرنا بيشوف القصر أصلاً.. يالا نرجع بقى، بقالنا كتير غايبين.

كان ظلام الليل يعم المكان، سارا معًا عائدين، قال (سيف):

_ اتعلمنا كتير.. واتغيرنا للأحسن.

ردت عليه: ولقينا نفسنا.

أكملا في طريقهما حتى ظهر شاب أمامهما فجأة، صاح:

_ سيف! إنت فين يا اسطا؟! إيه ده جميلة! ازيك يا جميلة عاملة إيه؟!

قال (سيف): علي.. إنت بتعمل إيه هنا؟

رد عليه: بعمل إيه هنا؟! إنت نسيت يا سيف ولا إيه؟ ما إحنا جايين هنا مع بعض، وإنت قلتلي هترجع بعد المغرب ومرجعتش، بقالي 3 ساعات بدور عليك لحد ما لقيتك.

قالا سويًا: 3 ساعات؟!

أجابهما: آه 3 ساعات.. أتاريك لقيت جميلة هنا، عشان كده طنشتنا.. عاملة إيه يا جميلة.

قالت في ذهول: الحمد لله يا علي.

ساروا معًا، كل منهما يقصد طريقه، لكنه في النهاية، طريق واحد.

* * *

بعد 10 أعوام

هتفت (جميلة) تنادي على صغيريها:

_ يا عمّار.. يا ريّان.

رد عليها (سيف):

_ إيه الصوت العالي ده؟ هو الواحد ميعرفش ينام ساعة في بيته ولا إيه؟

_ ما أنت النهار كله نايم يا أخويا.

نهض من مكانه غاضبًا، قال:

_ إيه اللي إنتي بتقوليه ده؟!

قالت متلعثمة:

_ استنى بس والله مش قصـ...

_ قولت 100 مرة متقوليش أخويا ده.

اتسعت حدقتي عينيها، ثم قهقهت عاليًا، شرد قليلاً، قال:

_ فاكرة لما رجعنا من القصر ولقيت عمي بيتصل بيا وبيرجعلي حقي بعد ما حصلتله حادثة عجزته؟!

_ طبعًا فاكرة، أنا كمان مصدقتش نفسي لما بابا وماما رجعوا من السفر من خوفهم عليا.. حالنا اتغير أوي من ساعتها.

_ الحمد لله.. الولاد فين بقى.

_ ما أنا بدور عليهم أهو.

صعدوا للطابق الثاني فوجدا (ريّان) ذو الاربعة أعوام يشاهد التلفاز، وفي غرفتهما وجدا (عمّار)، اقتربا منه، كان يمسك بورقة ويحدق بها، قالت (جميلة):

_ بتعمل إيه هنا يا حبيبي؟

لم يرد عليها، قال (سيف):

_ مين عيد ميلاده النهاردة؟ مين كمل 8سنين؟

لم يرد، فسحب (سيف) منه الورقة، كان مرسوم بها القصر الخفي، قالت (جميلة) متوترة:

_ أنا اللي رسمته يا سيف.

هتف (عمّار):

_ أنا شوفت القصر ده يا ماما.

قالا: إيه؟ متأكد؟

_ أيوة متأكد.. شوفته أول امبارح ولما قلت لأصحابي عليه قالولي إحنا مش شايفين حاجة.. مش عارف ليه كدبوا عليا، أنا متأكد إني شوفته.

نظرا إلى بعضهما البعض، صرخا معًا:

_ لأاااااااااااا.

تمت بحمد الله.